

The Problem of Freedom and Self-Liberation in Sufi Thought: Servitude, Will, and Human Emancipation (A Philosophical Approach)

Dr. Amal Mohamed Amer *

Department of Philosophy, Faculty of Arts, Misrata University, Misrata, Libya

*Corresponding author: Am_libya_al@yahoo.com

إشكالية الحرية وتحرير الذات في الفكر الصوفي: العبودية والإرادة والتحرر الإنساني (مقاربة فلسفية)

د. آمال محمد عامر *

قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة مصراتة، مصراتة، ليبيا

Received: 20-08-2026; Accepted: 22-09-2026; Published: 30-09-2026

Abstract:

Freedom in Sufi thought acquires a distinctive character, as the Sufi does not view constraint merely as an external authority, but rather seeks the roots of enslavement within the self itself—in desire, passion, greed, fear, attachment, the love of status, and the domination of the ego. Accordingly, the question of freedom shifts from merely asking, “What is the human being able to do?” to a deeper question: “From what must the human being liberate himself in order to become truly free?” Herein lies the philosophical problematic from which this study proceeds. Servitude, which at first appears to be the antithesis of freedom, is transformed within the Sufi experience into a path toward liberation. On this basis, the study does not approach Sufism as an experience of withdrawal from the world; rather, it interprets it as a project for liberating the self from inner enslavement, reconstructing the self, and redirecting the will toward its ethical and spiritual ends.

Keywords: Liberation, Self, Sufism, Freedom, Will.

المخلص

تكتسب الحرية في الفكر الصوفي خصوصيتها؛ إذ لا ينظر الصوفي إلى القيد على أنه سلطة خارجية فحسب، بل يبحث عن جذور الاستعباد في داخل الذات في الهوى، والشهوة، والطمع، والخوف، والتعلق، وحُب الجاه، وسيطرة الأنا. وبذلك ينتقل سؤال الحرية من مجرد «ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل؟» إلى سؤال أعمق: «ممّا يجب على الإنسان أن يتحرّر حتى يصير حراً؟». وهنا تبرز الإشكالية الفلسفية التي ينطلق منها هذا البحث؛ فالعبودية التي تبدو، في دلائلها الأولى، نقبضا للحرية، تتحول في التجربة الصوفية إلى طريق للتحرر. وعلى هذا الأساس، لا يتعامل البحث مع التصوف على أنه تجربة أنسحاب من العالم، بل يقرؤه بوصفه مشروعاً لتحرير الذات من الاستعباد الباطني وإعادة بنائها، وإعادة توجيه الإرادة نحو غايتها الأخلاقية والروحية.

الكلمات المفتاحية: التحرر، الذات، التصوف، الحرية، الإرادة.

مقدمة البحث:

تمثل الحرية واجدة من أعمق القضايا التي شغلت الفكر الإنساني؛ لأنها لا تتصل بالفعل الإنساني فحسب، بل تمس معنى الإنسان نفسه، وحدود إرادته، وعلاقته بذاته وبالعالم وبالمطلق. فالإنسان لا يسأل عن الحرية لأنه يريد أن يختار بين أفعال متعددة فقط، بل لأنه يسأل، في العمق، عما إذا كان يملك ذاته حقاً، أم أنه يحيا

تَحْتَ سُلْطَةِ قُوَى ظَاهِرَةٍ وَخَفِيَّةٍ تُوجِّهَ رَغْبَاتِهِ وَاخْتِيَارَاتِهِ وَمَعْنَى وُجُودِهِ. وَمِنْ هُنَا تَكْتَسِبُ الْحُرِّيَّةُ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ خُصُوصِيَّتَهَا؛ إِذْ لَا يَنْظُرُ الصُّوفِيُّ إِلَى الْقَيْدِ عَلَى أَنَّهُ سُلْطَةٌ خَارِجِيَّةٌ فَحَسْبُ، بَلْ يَبْحَثُ عَنْ جُذُورِ الْاسْتِعْبَادِ فِي دَاخِلِ الدَّاتِ فِي الْهَوَى، وَالشَّهْوَةِ، وَالطَّمَعِ، وَالْخَوْفِ، وَالتَّعَلُّقِ، وَحُبِّ الْجَاهِ، وَسَيِّطَرَةِ الْأَنَا. وَبِذَلِكَ يَنْتَقِلُ سُؤَالُ الْحُرِّيَّةِ مِنْ مُجَرَّدِ «مَاذَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْعَلَ؟» إِلَى سُؤَالٍ أَعَمَّقَ: «مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَرَّرَ حَتَّى يَصِيرَ حُرًّا؟». وَهُنَا تَبْرُزُ الْإِشْكَالِيَّةُ الْفَلَسَفِيَّةُ الَّتِي يَنْطَلِقُ مِنْهَا هَذَا الْبَحْثُ؛ فَالْعُبُودِيَّةُ الَّتِي تَبْدُو، فِي دَلَالَتِهَا الْأُولَى، نَقِيضًا لِلْحُرِّيَّةِ، تَتَحَوَّلُ فِي التَّجَرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ إِلَى طَرِيقٍ لِلتَّحَرُّرِ. فَكُلَّمَا تَحَرَّرَ الْإِنْسَانُ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ لِهَوَاهُ وَرَغْبَاتِهِ وَمَطَامِعِهِ وَتَعَلُّقِهِ بِالْخَلْقِ أَفْتَرَبَ مِنْ تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ، وَكُلَّمَا اكْتَمَلَتْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ تَحَقَّقَ لَهُ مَعْنَى أَعَمَّقُ مِنَ الْحُرِّيَّةِ. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، لَا يَتَعَامَلُ الْبَحْثُ مَعَ التَّصَوُّفِ عَلَى أَنَّهُ تَجَرِبَةٌ أَنْسَابٍ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ يَفْرُغُهُ بِوَصْفِهِ مَشْرُوعًا لِتَحْرِيرِ الدَّاتِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا؛ إِذْ تَعْدُو الْمُجَاهَدَةُ وَالتَّرَكِّيَّةُ وَالرَّهْدُ وَالْمُرَاقَبَةُ وَالتَّوَكُّلُ وَالرِّضَا مُمَارَسَاتٍ لِنَفْكَائِكَ أُنْسَاقِ الْاسْتِعْبَادِ الْبَاطِنِيِّ، وَإِعَادَةِ تَوْجِيهِ الْإِرَادَةِ نَحْوَ غَايَتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ.

إِشْكَالِيَّةُ الْبَحْثِ:

تَنْطَلِقُ إِشْكَالِيَّةُ الْبَحْثِ مِنْ مُفَارَقَةٍ مَرَكَزِيَّةٍ، وَهِيَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْعُبُودِيَّةِ، وَهِيَ فِي ظَاهِرِ الْمَفْهُومِ نَقِيضُ الْحُرِّيَّةِ، أَنْ تَتَحَوَّلَ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ إِلَى سَرَطٍ لِتَحْرِيرِ الدَّاتِ وَتَحْقِيقِ الْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ؟ وَيَتَفَرَّغُ عَنْ هَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةِ عَدَدٌ مِنَ السُّؤَالَاتِ:

1. مَا الدَّلَالَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ لِلْحُرِّيَّةِ فِي الْخُطَابِ الصُّوفِيِّ؟
2. مَا الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْحُرِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ؟
3. هَلْ يَغْنِي التَّسْلِيمُ لِلْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْغَاءَ الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، أَمْ إِعَادَةُ تَوْجِيهِهَا؟
4. مَا مَصَادِرُ الْاسْتِعْبَادِ الْبَاطِنِيِّ لِلدَّاتِ فِي الرُّوْيَةِ الصُّوفِيَّةِ؟
5. كَيْفَ تَعْمَلُ الْمُجَاهَدَةُ وَالتَّرَكِّيَّةُ عَلَى تَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنْ سُلْطَةِ الْهَوَى؟
6. هَلْ الْفَنَاءُ عَنِ الْإِرَادَةِ الْغَاءَ لِلدَّاتِ، أَمْ تَحَوُّلٌ فِي بَنِيَّتِهَا؟
7. هَلْ يُمَكِّنُ نَقْلَ مَفْهُومِ الْحُرِّيَّةِ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الْمَجَالِ الرُّوحِيِّ الْفَرْدِيِّ إِلَى أَفْقٍ أَخْلَاقِيٍّ وَإِنْسَانِيٍّ أَوْسَعِ؟
8. وَإِلَى أَيِّ مَدَى يُمَكِّنُ لِلتَّصَوُّفِ أَنْ يُقَدِّمَ تَصَوُّرًا لِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاَصِرِ مِنْ أَشْكَالِ الْاسْتِعْبَادِ الْجَدِيدَةِ؟

فَرَضِيَّاتُ الْبَحْثِ:

يَنْطَلِقُ الْبَحْثُ مِنَ الْفَرَضِيَّاتِ الْآتِيَةِ:

- الفَرَضِيَّةُ الْأُولَى:** أَنَّ الْحُرِّيَّةَ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ لَا تَقُومُ عَلَى إِطْلَاقِ الرِّغْبَةِ، بَلْ عَلَى التَّحَرُّرِ مِنْ سُلْطَتِهَا.
- الفَرَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ:** أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ لَا تُمَثِّلُ نَقِيضًا لِلْحُرِّيَّةِ فِي التَّصَوُّرِ الصُّوفِيِّ، بَلْ تُمَثِّلُ تَحَرُّرًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ لِمَا سِوَى اللَّهِ.
- الفَرَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ:** أَنَّ الْإِرَادَةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تُلْغَى فِي مَسَارِ السُّلُوكِ، وَإِنَّمَا تَنْتَقِلُ مِنْ إِرَادَةٍ مَحْكُومَةٍ بِالْهَوَى إِلَى إِرَادَةٍ مُتَحَرِّرَةٍ وَمُوجَّهَةٍ أَخْلَاقِيًّا.
- الفَرَضِيَّةُ الرَّابِعَةُ:** أَنَّ التَّرَكِّيَّةَ وَالْمُجَاهَدَةَ يُمَكِّنُ قِرَاءَتُهُمَا فَلَْسَفِيًّا بِوَصْفِهِمَا الْيَتِيمَيْنِ لِتَحْرِيرِ الدَّاتِ وَإِعَادَةِ تَشْكِيلِهَا.
- الفَرَضِيَّةُ الْخَامِسَةُ:** أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تَكْتَمِلُ فِي الْعُزْلَةِ عَنِ الْعَالَمِ، بَلْ تَظْهَرُ قِيَمَتُهَا فِي تَحَوُّلِ الْإِنْسَانِ أَخْلَاقِيًّا فِي عِلَاقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَبِالْآخَرِ.

أَهْمِيَّةُ الْبَحْثِ:

تَكْمُنُ أَهْمِيَّةُ الْبَحْثِ فِي أَنَّهُ يَسْعَى إِلَى تَجَاوُزِ الْقِرَاءَةِ النَّقْلِيَّةِ لِلْحُرِّيَّةِ وَالتَّصَوُّفِ، وَيُعِيدُ بِنَاءَهَا ضِمْنَ إِشْكَالِيَّةِ فَلَْسَفِيَّةٍ تَنْصِلُ بِتَحْرِيرِ فِي الدَّاتِ.

كَمَا تَتَجَلَّى أَهَمِّيَّتُهُ فِي الْكَشْفِ عَنْ أَنَّ التَّصَوُّفَ لَا يَفْتَقِرُ عَلَى تَهْذِيبِ السُّلُوكِ، بَلْ يَحْمِلُ فِي بَنِيَّتِهِ تَصَوُّرًا عَنْ الْإِنْسَانِ وَإِرَادَتِهِ وَحُرِّيَّتِهِ وَعِلَاقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَبِالْمُطْلَقِ.

أَهْدَافُ الْبَحْثِ:

يَهْدَفُ الْبَحْثُ إِلَى:

- تَحْلِيلُ الْمَفْهُومِ الصُّوفِيِّ لِلْحُرِّيَّةِ تَحْلِيلًا فَلَسْفِيًّا.
- الْكَشْفُ عَنْ جَدَلِيَّةِ الْحُرِّيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ.
- بَيَانُ مَوْقِعِ الْإِرَادَةِ فِي بِنَاءِ الدَّاتِ الصُّوفِيَّةِ.
- تَحْلِيلُ مَفْهُومِ الْأَسْتِعْبَادِ الْبَاطِنِيِّ.
- دِرَاسَةُ التَّرَكِّيَّةِ وَالْمُجَاهِدَةِ بِوَصْفِهِمَا مَسَارًا لِتَحْرِيرِ الدَّاتِ.
- دِرَاسَةُ التَّرَكِّيَّةِ وَالْمُجَاهِدَةِ بِوَصْفِهِمَا مَسَارًا لِتَحْرِيرِ الدَّاتِ.
- الْكَشْفُ عَنْ الْأُبْعَادِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ لِلْحُرِّيَّةِ الصُّوفِيَّةِ.
- اسْتِكْشَافُ امْكَانَاتِ الْإِفَادَةِ مِنَ الرُّؤْيَا الصُّوفِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ أَرْمَةِ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَعْنَى فِي الْوَاقِعِ الْمُعَاصِرِ.

مَنْهَجُ الْبَحْثِ:

يَعْتَمِدُ الْبَحْثُ عَلَى الْمَنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ الْفَلَسْفِيِّ فِي تَحْلِيلِ مَفَاهِيمِ الْحُرِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالِدَّاتِ وَالتَّحَرُّرِ. كَمَا يَسْتَعِينُ بِالْمَنْهَجِ التَّأْوِيلِيِّ فِي قِرَاءَةِ النُّصُوصِ الصُّوفِيَّةِ وَاسْتِكْشَافِ بَنِيَّتِهَا الْفَلَسْفِيَّةِ، وَبِالْمَنْهَجِ النَّقْدِيِّ فِي اخْتِبَارِ مَدَى قُدْرَةِ التَّصَوُّرِ الصُّوفِيِّ عَلَى بِنَاءِ مَفْهُومٍ مُتَمَاسِكٍ لِلْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

الْخُطَّةُ التَّفْصِيلِيَّةُ لِلْبَحْثِ:

- الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: الْحُرِّيَّةُ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ: جَدَلِيَّةُ الْمَفْهُومِ وَتَأْسِيسُ الْإِشْكَالِيَّةِ.
- الْمَبْحَثُ الثَّانِي: تَحْرِيرُ الدَّاتِ فِي التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ: مِنْ سُلْطَةِ الْهَوَى إِلَى حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ.
- الْمَبْحَثُ الثَّلَاثُ مِنْ تَحْرِيرِ الدَّاتِ إِلَى التَّحَرُّرِ الْإِنْسَانِيِّ: الْأُفُقُ الْفَلَسْفِيُّ وَالْأَخْلَاقِيُّ لِلْحُرِّيَّةِ الصُّوفِيَّةِ.
- الْخَاتِمَةُ.

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ وَالْفَجْوََةُ الْبَحْثِيَّةُ:

أَوَّلًا: الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:

حَظِيَّتْ قَضِيَّةُ الْحُرِّيَّةِ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ بِاهْتِمَامٍ وَاسِعٍ، لِازْتِبَاطِهَا بِمَسَائِلِ فِلَسْفِيَّةٍ وَكَلَامِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ، مِنْ أَبْرَزِهَا: الْإِرَادَةُ، وَالْاِخْتِيَارُ، وَالْجَبَرُ، وَالْقَدَرُ، وَالْمَسْئُورِيَّةُ، وَالْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمَشِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّ تَنَاوُلَ الْحُرِّيَّةِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ اكْتَسَبَ خُصُوصِيَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّ الصُّوفِيَّةَ لَمْ يَحْصُرُوا الْحُرِّيَّةَ فِي حُرِّيَّةِ الْفِعْلِ وَالْاِخْتِيَارِ، بَلْ رَبَطُوهَا بِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ مِنْ رِقِّ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى وَالتَّلَاقُ بِمَا سِوَى اللَّهِ. وَقَدْ أَكَّدَتْ دِرَاسَاتُ مُعَاصِرَةِ هَذَا الْارْتِبَاطِ بَيْنَ الْحُرِّيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فِي التَّصَوُّفِ. وَيُمْكِنُ عَرْضُ أَهَمِّ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ دَاتِ الصَّلَةِ بِمَوْضُوعِ الْبَحْثِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1- دِرَاسَةُ «الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ»:

تَنَاوَلَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ مَفْهُومَ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ، وَالطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَيْهَا، وَالتَّيَمَّارَ الْمُتَرَتِّبَةَ عَلَى التَّحَقُّقِ بِهَا. وَانْطَلَقَتْ مِنْ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تَنْفَصِلُ عَنْ تَمَامِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ، وَتَنَاوَلَتْ مَفَاهِيمَ الْمُجَاهِدَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْعُبُودِيَّةِ، مَعَ مُنَاقَشَةِ الْاِتِّهَامِ الْقَائِلِ بِأَنَّ التَّصَوُّفَ يَقُودُ إِلَى الْجَبَرِ وَالسَّلْبِيَّةِ وَالْإِنْعِزَالِ عَنِ الْمُجْتَمَعِ.

مَوْقِفُ الْبَحْثِ مِنْهَا:

تَقْتَرِبُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ مِنْ بَحْثِنَا فِي مَفْهُومِ الْحُرِّيَّةِ وَعِلَاقَتِهَا بِالْعُبُودِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهَا تَجْعَلُ مَفْهُومَ الْحُرِّيَّةِ دَاتَهُ مَحَوَّرًا، بَيْنَمَا يَنْتَقِلُ بَحْثُنَا إِلَى إِشْكَالِيَّةِ أَتَقَّ هِيَ تَحْرِيرُ الدَّاتِ، وَالْكَشْفُ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَحَوُّلِ الْإِنْسَانِ مِنْ دَاتٍ مَحْكُومَةٍ بِالْهَوَى وَالتَّلَاقُ إِلَى دَاتٍ تُمَثِّلُكُ إِرَادَتَهَا مِنْ خِلَالِ التَّرَكِّيَّةِ وَالْمُجَاهِدَةِ.

2- دراسة محمد الهاطي: «التصوف وفقه التحرر: من حرية الإرادة إلى إرادة التحرر»
نشرت هذه الدراسة في مجلة قوت القلوب الصادرة عن الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الإمام الجنيدي للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، في العددين (5، 6)، سنة 2015م، ص 326-331. وقد تناولت الدراسة أربعة محاور من بينها الإرادة بين الحرية والاستعباد، والاستعباد الظاهر والباطن والعلاقة بين تمام العبودية والحرية، ثم التحرر من رق النفس والأهواء.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها من أقرب الدراسات إلى موضوع بحثنا؛ لأنها لم تقف عند حرية الإرادة، بل ربطتها بإرادة التحرر، وميزت بين الاستعباد الظاهر والاستعباد الباطن. موقف البحث منها: على الرغم من هذا التقارب، فإن بحثنا يسعى إلى تجاوز مسألة «إرادة التحرر» إلى تحليل البنية الداخلية للذات التي يقع عليها فعل التحرر؛ أي: ما الذي يستعبد الذات؟ وكيف تفكك المجاهدة والتزكية سلطة الهوى والرغبة والانا؟ وما الذات التي تنشأ بعد هذا التحول؟

3 دراسة «المسؤولية والحرية عند المتصوفة»:
عالجت هذه الدراسة العلاقة بين الحرية والمسؤولية في التصوف، وأثارت سؤالاً فلسفياً مهماً حول ما إذا كانت الحرية عند الصوفية وصفاً للإرادة الإنسانية أم مقاماً يسعى السالك إلى تحقيقه. كما ربطت بين الطريق الصوفي والتكليف والمسؤولية الأخلاقية. (مجلة المسلم المعاصر).

موقف البحث منها:
يستفيد البحث من هذه الإشكالية، ولكنه ينقلها من سؤال المسؤولية عن الفعل إلى سؤال تكوين الفاعل نفسه؛ فقبل أن نسأل: هل الإنسان حر في فعله؟ نسأل: هل الإنسان حر من داخله بما يكفي ليكون اختياره حراً؟

4- دراسة العيد فقيه: «نظرة التصوف الإسلامي للإنسان ومفهوم اللاشعور»:
نشرت هذه الدراسة سنة 2005م، واهتمت بالنظرة الصوفية للإنسان وبنيتة النفسية والروحانية. ومن النقاط المهمة فيها ربط المجاهدة والرياضة الصوفية بالتحكم في الحياة النفسية، وتحرير الرغبات والإرادة، والوصول بالإنسان إلى درجة أرفع من الوعي النفسي والوجودي.

موقف البحث منها:
تكشف هذه الدراسة عن بُعد نفسي مهم في التجربة الصوفية، أما البحث الحالي فيريد إعادة قراءة هذه العملية من منظور فلسفي صوفي؛ بحيث لا تكون المجاهدة مجرد ضبط نفسي، بل فعلاً يعيد تشكيل الذات وعلاقتها بالإرادة والرغبة والمعنى.

5- الدراسات المتصلة بالمشيئة والإرادة والحمية:
ومن الدراسات ذات الصلة دراسة إبراهيم إبراهيم محمد ياسين: «المشيئة الإلهية ومفهوم الحرية والحمية في الفكر الإسلامي»، المنشورة في مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد 27، سنة 2000م، ص 313-368. وقد سملت موضوعاتها المشيئة الإلهية، والحرية، والحمية، والإرادة، والعبودية والتوحيد، مع حضور الغزالي وابن عربي والتصوف وعلم الكلام.

موقف البحث منها:
تفيد هذه الدراسة في تأسيس الخلفية الكلامية والفلسفية لمسألة الإرادة، غير أن موضوعنا لا يقف عند إثبات حرية الإرادة أو نفيها، بل يبحث في كيفية تحرير الإرادة نفسها من القيود الباطنية التي تجعل الإنسان يتوهم أنه يختار، في حين أنه قد يكون محكوماً بهواه وخوفه وطمعه وتعلقه.

التعقيب على الدراسات السابقة:
يتضح من تحليل الدراسات السابقة أنها قدمت إسهامات مهمة في بيان مفهوم الحرية عند الصوفية، وعلاقتها بالعبودية والتوحيد والإرادة والقضاء والقدر، كما اهتمت بعضها بالمجاهدة والتحرر من الهوى والباطني.

ولذلك لا يصح علمياً أن يدعي البحث الحالي أن مسألة الحرية والعبودية وتحرر الإنسان من الهوى لم تدرس من قبل؛ فهذا موجود في الدراسات السابقة، ولا سيما دراسة «التصوف وفقه التحرر». وإنما ينبغي أن تبنى أصالة البحث على تغيير زاوية السؤال ووحدة التحليل من دراسة الحرية عند الصوفية إلى دراسة «الذات التي تتحرر، وكيف تتحرر، وإلى أي نمط من الذات تتحول».

الفَجْوَةُ الْبَحْثِيَّةُ:

تَنَحَّدُ الْفَجْوَةُ الْبَحْثِيَّةُ الَّتِي يَسْعَى هَذَا الْبَحْثُ إِلَى مُعَالَجَتِهَا فِي أَنَّ جُلَّ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ - فِي حُدُودِ مَا أَمَكَنَ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ - قَدْ تَنَاوَلَتِ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ مِنْ جِهَةِ الْمَفْهُومِ، أَوْ الْعَلَاقَةِ بِالْعُبُودِيَّةِ، أَوْ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، أَوْ الْمَسْئُولِيَّةِ، أَوْ التَّحَرُّرِ مِنَ الْهَوَى، دُونَ أَنْ يَكُونَ «تَحْرِيرُ الدَّاتِ» بِوصْفِهِ عَمَلِيَّةٌ فَلَسْفِيَّةٌ مُتَكَامِلَةٌ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ هُوَ الْمَحْوَرُ التَّحْلِيلِيُّ الْمَرْكَزِيُّ. وَمِنْ ثَمَّ، يَطْرَحُ الْبَحْثُ سُؤَالَ يَتَجَاوَزُ الصِّعْغَةَ التَّقْلِيدِيَّةَ: لَيْسَ: هَلِ الْإِنْسَانُ حُرٌّ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ يَصِيرُ الْإِنْسَانُ حُرًّا؟

وَمَا الَّذِي يَجْرِي دَاخِلَ الدَّاتِ حِينَ تَنْتَقِلُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْهَوَى إِلَى حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، وَمِنْ تَشْتَتِ الرَّغْبَةِ إِلَى وَحْدَةِ الْقَصْدِ، وَمِنْ التَّعَلُّقِ بِمَا سِوَى اللَّهِ إِلَى تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ؟

وَعَلَيْهِ، تَتِمَّتِلُ الْفَجْوَةُ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ الْمَفَاهِيمِ الصُّوفِيَّةِ - كَالْمُجَاهَدَةِ، وَالتَّزْكِيَةِ، وَالزُّهْدِ، وَالْمُرَاقَبَةِ، وَالْفَنَاءِ، وَالْبَقَاءِ - دَاخِلَ نَظَرِيَّةٍ فَلَسْفِيَّةٍ فِي تَحْرِيرِ الدَّاتِ، وَدِرَاسَةِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ هَذَا التَّحَرُّرِ الْبَاطِنِيِّ وَتَكُونِ الْإِرَادَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.

الإِضَافَةُ الْعِلْمِيَّةُ لِلْبَحْثِ:

تَتِمَّتِلُ الْإِضَافَةُ الْعِلْمِيَّةُ لِلْبَحْثِ فِي اقْتِرَاحِ مَفْهُومِ «تَحْرِيرِ الدَّاتِ» مِفْتَاحًا تَأْوِيلِيًّا لِقِرَاءَةِ التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ؛ فَالْمُجَاهَدَةُ لَيْسَتْ قَهْرًا لِلدَّاتِ، وَالتَّزْكِيَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَهْذِيبِ سُلُوكِيٍّ، وَالزُّهْدُ لَيْسَ رَفْضًا لِلْعَالَمِ، وَالْفَنَاءُ لَيْسَ الْغَاءُ لِلْإِنْسَانِ؛ بَلْ يُمَكِّنُ - وَهَذِهِ فَرَضِيَّةُ الْبَحْثِ الَّتِي سَتُخْضَعُ لِلتَّحْلِيلِ وَالنَّقْدِ - قِرَاءَةَ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ بِوصْفِهَا مَرَاجِلَ فِي تَفْكِيكِ عُبُودِيَّةِ الدَّاتِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا.

وَبِهَذَا يَنْتَقِلُ الْبَحْثُ مِنْ فَلَسَفَةِ الْحُرِّيَّةِ إِلَى فَلَسَفَةِ التَّحَرُّرِ؛ أَيِ مِنَ السُّؤَالِ عَنْ مَا هِيَ الْحُرِّيَّةُ إِلَى السُّؤَالِ عَنْ صَيْرُورَةِ الْإِنْسَانِ حُرًّا. وَهُنَا تَكْمُنُ - فِي تَقْدِيرِ الْبَحْثِ - قِيَمَتُهُ الْفَلَسْفِيَّةُ وَالصُّوفِيَّةُ: فَالْحُرِّيَّةُ لَا تُقْرَأُ كَحَالَةٍ يَمْتَلِكُهَا الْإِنْسَانُ مُسَبِّقًا، بَلْ كَمَسَارٍ لِبِنَاءِ الدَّاتِ وَتَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ؛ وَهُوَ مَا يَفْتَحُ الْبَحْثُ فِي مَرَحَلَتِهِ الْأَخِيرَةِ، عَلَى سُؤَالِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ وَأَشْكَالِ اسْتِعْبَادِهِ الْجَدِيدَةِ.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: الْحُرِّيَّةُ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ: جَدَلِيَّةُ الْمَفْهُومِ وَتَأْسِيسُ الْإِشْكَالِيَّةِ:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْحُرِّيَّةُ بَيْنَ الدَّلَالَةِ الْفَلَسْفِيَّةِ وَالتَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ:

تَتَجَلَّى الْحُرِّيَّةُ فِي صَمِيمِ السُّؤَالِ الْفَلَسْفِيِّ عَنِ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ الْبَحْثَ فِي الْحُرِّيَّةِ هُوَ، فِي جَوْهَرِهِ، بَحْثٌ فِي حَقِيقَةِ الدَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَفِي مَدَى قُدْرَتِهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ مَصْنُوعًا لِأَفْعَالِهَا وَاخْتِيَارَاتِهَا. فَلَا يَكْفِي أَنْ نَسْأَلَ: هَلِ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يُرِيدُ؟ بَلْ يَتَقَدَّمُ عَلَى ذَلِكَ سُؤَالٌ أَشَدَّ عُمَقًا: هَلِ مَا يُرِيدُهُ الْإِنْسَانُ صَادِرٌ عَنْ دَاتٍ حُرَّةٍ، أَمْ عَنْ

دَاتٍ تَتَحَكَّمُ فِيهَا قُوَى لَا تَعِي أَحْيَانًا سُلْطَتَهَا عَلَيْهَا؟

هُنَا يَبْرُزُ الْفَرْقُ بَيْنَ حُرِّيَّةِ الْفِعْلِ وَحُرِّيَّةِ الدَّاتِ؛ فَقَدْ يَمْتَلِكُ الْإِنْسَانُ قُدْرَةَ النَّصْرِفِ فِي الظَّاهِرِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ أَسِيرًا فِي بَاطِنِهِ لِرَغْبَةٍ أَوْ خَوْفٍ أَوْ طَمَعٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ تَعَلُّقٍ. وَمِنْ ثَمَّ، لَا تَعُودُ الْحُرِّيَّةُ مُجَرَّدَ غِيَابٍ لِلْإِكْرَاهِ الْخَارِجِيِّ، بَلْ تَصِيرُ قُدْرَةً عَلَى امْتِلَاكِ الدَّاتِ وَتَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنَ الْقُوَى الَّتِي تُصَادِرُهَا مِنَ الدَّخْلِ. وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ التَّجَرُّبَةَ الصُّوفِيَّةَ مَجَالًا خَصَبًا لِقِرَاءَةِ الْحُرِّيَّةِ قِرَاءَةً فَلَسْفِيَّةً، فَالصُّوفِيُّ لَا يَبْدَأُ سُؤَالَهُ مِنْ حُدُودِ السُّلْطَةِ الْخَارِجِيَّةِ فَقَطْ بَلْ يَعُودُ إِلَى أَعْمَاقِ الْإِنْسَانِ، حَيْثُ يَرَى أَنَّ أَشَدَّ الْقُبُودِ خَفَاءٌ هِيَ تِلْكَ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، وَيَظُنُّهَا جُزْءًا مِنْ حُرِّيَّتِهِ. فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَتَصَوَّرُ أَنَّ انْقِيَادَهُ لِرَغْبَاتِهِ تَحَقُّقٌ لِحُرِّيَّتِهِ، فِي حِينِ أَنَّ الرُّوْيَةَ الصُّوفِيَّةَ تَكْشِفُ عَنْ مُفَارَقَةِ أُخْرَى أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ كُلَّ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ لَا يَعْنِي أَنَّهُ حُرٌّ، فَقَدْ يَعْنِي أَنْ نَفْسُهُ هِيَ الَّتِي تَمْلِكُهُ. وَمِنْ هُنَا يُنْقَلُ مَفْهُومُ الْحُرِّيَّةِ مِنْ حُرِّيَّةِ إِشْبَاعِ الرِّغْبَةِ إِلَى حُرِّيَّةِ التَّحَرُّرِ مِنْ سُلْطَتِهَا.

وَلِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْحُرِّيَّةُ فِي الْخِطَابِ الصُّوفِيِّ مَفْهُومًا مُجَرَّدًا يُنَاقَشُ فِي حُدُودِ النَّظَرِ، بَلْ كَانَتْ حَالَةً وَجُودِيَّةً وَمَقَامًا تَرْبُويًّا وَثَمَرَةً لِمَسَارٍ مِنَ الْمُجَاهَدَةِ وَالتَّزْكِيَةِ. فَالْحُرِّيَّةُ لَا تَوْهَبُ لِلدَّاتِ مِنْ خَارِجِهَا، وَلَا تَتَحَقَّقُ بِمُجَرَّدِ إِعْلَانِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ حُرٌّ، بَلْ تَتَكَوَّنُ مِنْ خِلَالِ مُوَاجَهَةِ مَا يَسْتَعْبِدُهُ فِي بَاطِنِهِ.

وَيَقْدِمُ الْقَشِيرِيُّ تَصَوُّرًا دَالًّا فِي هَذَا السِّيَاقِ؛ فَهُوَ يُفَسِّرُ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ بِأَلَّا يَكُونَ الْعَبْدُ بِقَلْبِهِ تَحْتَ رِقِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا تَسْتَرْقُهُ الدُّنْيَا وَلَا الْهَوَى وَلَا الْأَمَانِيُّ وَالْمَطَالِبُ (القشيري، 1989، ص372). وَهَذَا

التعريف يكشف أن الحرية عند القشيري ليست الغاء للعبودية، بل تحريراً للقلب من أن يقع في عبودية ما سوى الله.

وفي هذا الرياق يردُّ عنده القول الصوفي: «من أراد الحرية فليصل العبودية»، وهو قول نقله القشيري عن الحسين بن منصور (القشيري، 1989، ص373). والمفارقة الظاهرة في هذه العبارة هي أن الحرية تُطلب عبر العبودية، لا عبر الخروج منها. ومعنى ذلك فلسفياً أن الإنسان لا يصير حراً بأن ينفى كل انتساب وكل غاية وكل مرجعية، بل بأن يتحرر من التعلق بما هو جزئي وزائل، ويتجه بإرادته نحو ما يراه مطلقاً وحَقاً. ولذلك يمكن القول إن الصوفية لا ترى العبودية والحرية على أنهما طرفان متناقضان على نحو بسيط، بل تُعبد توزيع معنهما: فهناك عبودية تحرر، وهناك حرية ظاهرة قد تستعبد. فمن توهم الحرية في إطلاق الهوى قد يصير عبداً لهواه، ومن تحقق بالعبودية لله قد يتحرر من خوف الناس ومن طمعه فيهم ومن تعلقه بما في أيديهم. ولهذا نقل القشيري عن الجنيد أن السالك لا يصل إلى صريح الحرية ما دام عليه بقية من حقيقة العبودية، كما نقل عن بشر الحافي ربط الحرية بتطهير السريرة بين العبد وربِّه (القشيري، 1989، ص379). وهذا يدل على أن مجال الحرية هنا ليس المجال السياسي أو القانوني فقط بل السريرة نفسها؛ أي المكان الذي تتكون فيه الرغبة، وتنشأ فيه النية، ويتحدد فيه القصد.

وبهذا تتسع الدلالة الفلسفية للحرية في التصوف؛ فهي لا تسأل فقط عن حرية الإرادة، بل تسأل أيضاً عن حرية الإرادة من ذاتها؛ أي: من الميل الذي يستبد بها، ومن الرغبة التي تُصايرها، ومن العادة التي تُفقدُها وعيها، ومن الخوف الذي يضعف اختيارها.

ومن هنا تبرز إشكالية دقيقة: هل الإنسان الذي يستجيب لكل ما يرغب فيه أكثر حرية، أم الإنسان الذي يملك قدرة رفض ما يرغب فيه حين يكون فيه استعباد؟ وفي ضوء الرؤية الصوفية، تكمن الحرية في الاحتمال الثاني؛ لأن مِغيار الحرية لا يكون في كثرة المرغوبات التي يفقد الإنسان على نيلها، بل في مدى قدرته على ألا تمتلكه ما يملكه.

ويظهر هنا أن الحرية الصوفية تحمل بُعداً نقدياً للذات؛ فهي لا تفترض أن الذات حرة منذ البداية، بل تفترض أن الحرية مشروع يحتاج إلى تكون ومجاهدة وتربية. وبهذا المعنى، فإن السالك لا يدخل الطريق ليفقد إرادته، بل ليستردّها من أشكال الاستعباد التي تُصيبها. ومن ثم يمكن تأويل المجاهدة الصوفية بوصفها تدريباً على الحرية؛ فهي ليست إعداماً للرغبة، بل تحريراً للإنسان من أن يكون مجروراً خلف كل رغبة. وليست التزكية إغناء لمكونات الذات، بل إعادة ترتيب لها، بحيث يخضع الميل للوعي، وتخضع الرغبة للقيمة، وتخضع الشهوة للمعنى.

وهذا يقود إلى التمييز بين الحرية السلبية التي تعني التخلص من القيد، والحرية الإيجابية التي تعني القدرة على تحقيق الذات وتوجيهها نحو غاية تعتبرها حقاً وخيراً. ومع أن هذا التمييز ينتمي إلى بنية التحليل الفلسفي الحديث، فإن التجربة الصوفية تكشف عن صيغة روحية له: التحرر من رق ما سوى الله، ثم التحقق بإرادة موجهة نحو الحق والخير.

ولكن هذا التصور يفتح أيضاً باباً للنقد؛ إذ يمكن أن يُسأل: إذا كانت غاية السالك أن يتخلص من إرادة نفسه وأن يسلم للمشيئة الإلهية، فأين تبقى الحرية؟ وهل يعني التسليم أن الذات تفقد استقلالها ومسؤوليتها؟ إن هذا الاعتراض هو نفسه ما يجعل مفهوم الحرية الصوفية إشكالياً وجديراً بالدراسة؛ لأن الحرية هنا لا نفهم بوصفها استقلالاً مطلقاً عن الله والعالم، بل بوصفها تحرراً من عبوديات متناثرة تفقد الإنسان وحدة إرادته. فحين يتعلق الإنسان بما لا يحصى من الرغبات والمصالح والمخاوف، تنتشظى إرادته بينها؛ أما التوحيد فيعيد - في الرؤية الصوفية - تجميع هذه الإرادة حول مركز واحد. وهنا تصبح العبودية لله توحيداً للقصد بعد تسنيته، وتحريراً للإرادة بعد ارتهاقها لمراكز متعددة.

ومن هذا المنظور، فإن التصوف يعيد بناء سؤال الحرية من داخل الذات نفسها؛ فلا يبدأ من السؤال: من يمنعني من الفعل؟، بل من السؤال: ما الذي يملكني وأنا أظن أنني أملك نفسي؟

وهذه النقطة تمثل - في تقدير هذا البحث - أحد أعرق الأبعاد الفلسفية للحرية الصوفية؛ إذ تنتقل الحرية من مجال الحق في الاختيار إلى مجال القدرة على تكوين الذات التي تختار.

وبهذا يسبق سؤال تحرير الذات سؤال حرية الفعل؛ لأن الذات إذا كانت مسلوبة من داخلها، فإن كثرة الخيارات أمامها لا تكفي لجعلها حرة.

وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ الْحُرِّيَّةَ فِي التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ لَيْسَتْ نُقْطَةً بَدءٍ، بَلْ مَقَامًا يُبْنَى، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ امْتِلَاكِ خِيَارٍ، بَلْ امْتِلَاكِ الذَّاتِ الَّتِي تَمَارَسُ الْاِخْتِيَارَ. وَمِنْ هُنَا تَنْفَتِحُ الدِّرَاسَةُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ الْأَعْمَقِ الَّتِي سَيَعْرُضُ لَهَا الْمَطْلَبُ الثَّانِي: كَيْفَ تَتَحَوَّلُ الْعُبُودِيَّةُ -وَهِيَ فِي ظَاهِرِهَا نَقِيضُ الْحُرِّيَّةِ- إِلَى شَرْطٍ مِنْ شُرُوطِ التَّحَرُّرِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ؟

خُلَاصَةُ الْمَطْلَبِ الْأَوَّلِ:

يَتَبَيَّنُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ لَا تُقَاسُ بِمِقْدَارِ مَا يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ خِيَارَاتٍ فَحَسْبُ، بَلْ بِمِقْدَارِ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ سَيَادَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ عَلَى ذَاتِهِ. فَالْحُرِّيَّةُ لَيْسَتْ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ كُلُّ مَا يُرِيدُ، بَلْ أَنْ يَعْرِفَ مَنْ الَّذِي يُرِيدُ فِيهِ؟ أَهِيَ ذَاتٌ وَاعِيَةٌ مُتَحَرِّرَةٌ، هَوَى يَلْبَسُ لِبَاسَ الْإِرَادَةِ؟ وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، تَتَجَاوَزُ الرُّؤْيَا الصُّوفِيَّةُ مَفْهُومَ الْحُرِّيَّةِ بِوَصْفِهَا غِيَابًا لِلْقَيْدِ لِتَجْعَلَهَا مَسَارًا فِي تَحْرِيرِ الذَّاتِ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْهَوَى وَالتَّعَلُّقِ وَالْخَوْفِ وَالطَّمَعِ. وَبِذَلِكَ تَصِيرُ الْمَجَاهِدَةُ وَالتَّرَكِّيَّةُ وَالْمِرَاقِبَةُ وَالزُّهْدُ مَرَاجِلَ فِي صَنْعِ الذَّاتِ الْقَادِرَةِ عَلَى أَنْ تَكُونَ حُرَّةً وَهُنَا يَتَجَلَّى الْمُحَوَّرُ الَّتِي سَيَقُومُ عَلَيْهَا بَقِيَّةُ الْبَحْثِ: أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ فِي التَّصَوُّرِ الصُّوفِيِّ لَا تُقَدَّمُ بِوَصْفِهَا إِنْهَاءً لِلْحُرِّيَّةِ، بَلْ بِوَصْفِهَا تَحَرُّرًا مِنْ كُلِّ مَا يَسْتَعْبِدُ الْإِنْسَانَ دُونَ اللَّهِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الْعُبُودِيَّةُ وَمُفَارَقَةُ التَّحَرُّرِ:

تَكْشِفُ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ عَنْ وَاحِدَةٍ مِنْ أَعْمَقِ الْمُفَارَقَاتِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الْقِرَاءَةَ الْفَلَسَفِيَّةَ؛ فَالْمَعْنَى الظَّاهِرُ لِلْعُبُودِيَّةِ يُجْبِلُ إِلَى الْخُضُوعِ وَفَقْدِ الْاِسْتِقْلَالِ، بَيْنَمَا تُحِيلُ الْحُرِّيَّةُ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْقَيْدِ وَامْتِلَاكِ الْإِرَادَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْخُطَابَ الصُّوفِيَّ يَقْلِبُ هَذِهِ الْمُعَادِلَةَ؛ فَيَجْعَلُ مِنْ تَحَقُّقِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ مَدْخَلًا إِلَى الْحُرِّيَّةِ، وَمِنْ التَّعَلُّقِ بِمَا سِوَاهُ صُورَةً مِنْ صُورِ الرِّقِّ وَالاِسْتِعْبَادِ. وَهَذَا الْقَلْبُ لِلْمَفْهُومِ لَا يَعْنِي إِزَالَةَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحُرِّيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، بَلْ يَعْنِي إِعَادَةَ النَّظَرِ فِي مَوْضُوعِ الْعُبُودِيَّةِ نَفْسِهِ؛ فَلَيْسَ السُّؤَالُ: هَلْ الْإِنْسَانُ عَابِدٌ أَمْ حُرٌّ؟ بَلْ لِمَنْ تَكُونُ عُبُودِيَّتُهُ؟ وَمَا الَّذِي يَمْلِكُ قَلْبَهُ وَيُوجِّهُ إِرَادَتَهُ؟ فَقَدْ يَرْفُضُ الْإِنْسَانُ كُلَّ صُورَةٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الْخُضُوعِ، وَيَظَلُّ فِي بَاطِنِهِ عَبْدًا لِشَهْوَةٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ أَوْ صُورَةٍ عَنْ ذَاتِهِ يَسْعَى إِلَى جَمَائَتِهَا. وَيُشِيرُ الْقَشِيرِيُّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الْمَشَارَ إِلَيْهَا عِنْدَ الْقَوْمِ هِيَ أَلَّا يَكُونَ الْقَلْبُ تَحْتَ رِقِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ الْأَهْوَاءِ وَالْمَطَالِبِ (القشيري، 1989، ص378).

وَمِنْ هُنَا يَتَّجِعُ الْفِكْرُ الصُّوفِيُّ إِلَى تَوْسِيعِ مَفْهُومِ الْاِسْتِعْبَادِ؛ فَلَا يَحْصُرُهُ فِي الْقَهْرِ الْخَارِجِيِّ، بَلْ يَكْشِفُ عَنْ الْاِسْتِعْبَادِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي يَتَسَلَّلُ إِلَى الرَّغْبَةِ وَالنِّيَّةِ وَالْقَصْدِ وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَذْهَبُ الْقَشِيرِيُّ إِلَى أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الَّتِي يُشِيرُ إِلَيْهَا الصُّوفِيَّةُ تَتَحَقَّقُ حِينَ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ بِقَلْبِهِ تَحْتَ رِقِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَا يَسْتَرْفُهُ عَاجِلُ دُنْيَا، وَلَا حَاصِلُ هَوَى، وَلَا أَمَلٌ وَمَطَالِبٌ مُسْتَقْبَلِيَّةٌ (القشيري، 1989، ص379). وَهَذَا تَصَبُّحُ الْحُرِّيَّةِ تَحَرُّرًا مِنْ تَعَدُّدِ مَصَادِرِ الْاِسْتِعْبَادِ الْبَاطِنِيِّ، لَا مَجْرَدِ انْفِصَالٍ عَنْ سُلْطَةِ خَارِجِيَّةٍ.

وَيَتَّضِحُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْقَوْلِ الَّذِي نَقَلَهُ الْقَشِيرِيُّ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَنُصُورٍ: «مَنْ أَرَادَ الْحُرِّيَّةَ فَلْيَصِلِ الْعُبُودِيَّةَ». وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُفْهَمَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّهَا جَمْعٌ لَفْظِيٌّ بَيْنَ نَقِيضَيْنِ، بَلْ عَلَى أَنَّهَا إِعَادَةُ تَعْرِيفٍ لِلْحُرِّيَّةِ: فَالْحُرِّيَّةُ الصُّوفِيَّةُ لَا تَبْدَأُ مِنْ نَفْيِ الْعُبُودِيَّةِ، بَلْ مِنْ تَوْجِيدِهَا أَيْ: أَلَّا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ مَرْكَزُ خُضُوعٍ نِهَائِيٍّ إِلَّا لِلَّهِ (بن عاشور، 2014، ص132).

وَبِهَذَا تَتَحَوَّلُ الْعُبُودِيَّةُ مِنْ قَيْدٍ إِلَى مَعْيَارٍ لِلتَّحَرُّرِ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ، كُلَّمَا تَحَرَّرَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِمَا سِوَى اللَّهِ، تَقَلَّصَتْ مَصَادِرُ خَوْفِهِ وَطَمَعِهِ وَتَبَعِيَّتِهِ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ التَّوَجِيدَ فِي بَنِيَّتِهِ الصُّوفِيَّةِ يَحْمِلُ مَعْنَى تَحْرِيرِيًّا؛ فَهُوَ لَا يُوجَدُ مَوْضُوعَ الْعِبَادَةِ فَحَسْبُ، بَلْ يُوجَدُ أَيْضًا وَجْهَةً الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ. وَيُكْشِفُ الْغَزَالِيُّ عَنْ تَعْمِيقِ هَذَا الْمَعْنَى؛ إِذْ يَرِبُطُ الْحُرِّيَّةَ بِالْخَلَاصِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ وَغُمُومِ الدُّنْيَا وَالْاِسْتِغْلَاءِ عَلَيْهَا بِالْقَهْرِ، ثُمَّ يُصَرِّحُ بِأَنَّ كَمَالَ الْحُرِّيَّةِ يَعْنِي عَدَمَ الْعُبُودِيَّةِ لِلشَّهَوَاتِ وَلِأَسْبَابِ الدُّنْيَا (الغزالي، د.ت، ص267). وَهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الْاِسْتِعْبَادَ الْحَقِيقِيَّ مُمْكِنًا حَتَّى فِي غِيَابِ الْإِكْرَاهِ الْخَارِجِيِّ، مَا دَامَ الْإِنْسَانُ عَاجِزًا عَنْ مَقَاوِمَةِ شَهْوَتِهِ أَوْ التَّحَرُّرِ مِنْ هَيْمَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالرَّغْبَةِ عَلَيْهِ. وَمِنْ هُنَا يَنْشَأُ تَمَيِّزٌ دَقِيقٌ بَيْنَ الْاِخْتِيَارِ وَالْحُرِّيَّةِ؛ فَلَيْسَ كُلُّ اِخْتِيَارٍ دَلِيلًا عَلَى الْحُرِّيَّةِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَخْتَارُ مَا فَرَضَهُ عَلَيْهِ إِدْمَانُهُ أَوْ شَهْوَتُهُ أَوْ خَوْفُهُ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَتَّصَرَّفُ بِإِرَادَةٍ مُسْتَقَلَّةٍ. وَهَذَا يُصْبِحُ التَّحَرُّرُ أَعْمَقَ مِنْ كَثْرَةِ الْخِيَارَاتِ؛ إِذْ يَتَّصِلُ بِقُدْرَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى تَحْرِيرِ

مَصْنَعُ الاختِيَارِ نَفْسِهِ (بن عاشور، 2014، ص138)، ولذلك يؤكد المكي على أن طريق المريد إلى مقام التوحيد يمر عبر مجاهدة النفس وتهذيبها ومخالفة أهوائها وشهواتها (المكي، 2005، ص324). وَهَذَا الْمَعْنَى يَجْعَلُ التَّصَوُّفَ يُقَدِّمُ مَا يُمَكِّنُ تَسْمِيئَهُ نَفْداً لِلْحُرِّيَةِ الْوَهْمِيَّةِ؛ فَقَدْ يَتَوَهَّمُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ حُرٌّ لِأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الْاِمْتِلَاكَ وَالْاِسْتِهْلَاكَ وَالتَّصَرُّفَ وَالْاِخْتِيَارَ، بَيْنَمَا يَكُونُ مَقْبُوداً مِنْ دَاخِلِهِ بِالْحَاجَةِ إِلَى التَّقْدِيرِ وَالْاِعْتِرَافِ وَالْمَكَانَةِ وَاثْبَاتِ الدَّاتِ. وَقَدْ لَقِيَ الْغَزَالِيُّ إِلَى خَطَرٍ تَوَهَّمُ الْكَمَالَ فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى اسْتِخْدَامِ الْآخَرِينَ، وَقَابَلَ ذَلِكَ بِكَمَالٍ آخَرَ يَتِمَثَّلُ فِي الْعِلْمِ وَالْحُرِّيَةِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ. (الغزالي، د.ت، ص269)

وَلَعَلَّ مَا يُمَيِّزُ الْمَنْظُورَ الصُّوفِيَّ هُنَا أَنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى النَّفْسِ بِوصفها مُجَرَّدَ مَجَالٍ لِلرَّغَبَاتِ، بَلْ بِوصفها مَجَالٍ صِرَاعٍ عَلَى الرِّيَادَةِ: هَلْ تَكُونُ الْإِرَادَةُ قَائِدَةً لِلرَّغْبَةِ، أَمْ تَكُونُ الرَّغْبَةُ هِيَ الَّتِي تَقُودُ الْإِرَادَةَ؟ وَمِنْ هُنَا تَأْخُذُ الْمُجَاهِدَةُ مَعْنَاهَا؛ فَهِيَ لَيْسَتْ خُصُومَةً مَعَ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَا إِفْنَاءً لِكُلِّ مِيلٍ طَبِيعِيٍّ، بَلْ سَعْيٌ إِلَى أَلَّا تَتَحَوَّلَ الرَّغْبَةُ إِلَى سُلْطَةٍ تُلْغِي وَغِي الْإِنْسَانَ وَمَسْئُولِيَّتَهُ. (محمود، 1967، ص286). وَعَلَى هَذَا، فَإِنَّ الْمُجَاهِدَةَ تَفْهَمُ بِوصفها تَدْرِيباً لِلْإِرَادَةِ عَلَى أَنْ تَسْتَرِدَّ قُدْرَتَهَا عَلَى التَّوَجُّهِ وَالرَّفْضِ وَالْاِخْتِيَارِ. وَهُنَا يُلْتَقِي مَفْهُومُ الْعُبُودِيَّةِ بِمَفْهُومِ التَّرَكِّيَّةِ؛ فَالتَّرَكِّيَّةُ لَا تَصْنَعُ دَاتاً مُنْعِمَةً الْإِرَادَةَ، بَلْ تَسْعَى إِلَى صُنْعِ دَاتٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْتَارَ مَا تَرَاهُ خَيْرًا حَتَّى جِبْنَ يُخَالِفُ الْهَوَى. وَبِذَلِكَ تُصْبِحُ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ - فِي بَنِيَّةِ التَّصَوُّفِ - لَا إِلْعَاءَ لِلنَّفْسِ، بَلْ إِعَادَةُ تَرْتِيبِ لِقَوَاهَا؛ فَلَا تَعُودُ الشَّهْوَةُ مَرْجِعاً نِهَائِيًّا، وَلَا الْخَوْفُ قَائِداً، وَلَا الْمَالُ وَالْجَاهُ مِقْيَاساً لِقِيَمَةِ الدَّاتِ.

وَلِهَذَا كَانَ الزُّهْدُ، فِي جَوْهَرِهِ الصُّوفِيٍّ، أَقْرَبَ إِلَى تَحْرِيرِ الْعِلَاقَةِ بِالأَشْيَاءِ مِنْهُ إِلَى التَّخْلِى؛ فَلَيْسَ السُّؤَالُ هَلْ يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ شَيْئاً؟ بَلْ: هَلْ يَمْلِكُ الشَّيْءُ الْإِنْسَانَ؟ وَهَلْ يَبْقَى الْقَلْبُ قَادِراً عَلَى الْفَقْدِ دُونَ أَنْ يَفْقَدَ مَعَهُ مَعْنَاهُ وَوُجُودَهُ؟ وَبِهَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ الزُّهْدَ يُمَكِّنُ قِرَاءَتَهُ فُلْسُفِيًّا بِوصفه نَفْداً لِهَوِيَّةِ الْاِمْتِلَاكِ؛ أَيْ: لِتِلْكَ الصَّيْغَةِ الَّتِي يَعْرِفُ فِيهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِمَا يَمْلِكُ، وَيَقِيسُ قِيَمَتَهُ بِمَا يَجْمَعُ، وَيَرَهُنُ أَمْنَهُ الدَّاخِلِيَّ لِمَا فِي يَدِهِ. وَهُنَا يَتَحَوَّلُ التَّخَفُّفُ مِنَ التَّعَلُّقِ إِلَى شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ اسْتِرْدَادِ الدَّاتِ.

وَلَا تَقِفُ الْعُبُودِيَّةُ عِنْدَ حَدِّ التَّحَرُّرِ مِنَ الْمَادِيٍّ؛ فَقَدْ يَتَحَرَّرُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَالِ وَيَبْقَى مَأْسُوراً لِمَدْحِ النَّاسِ، أَوْ يَتَخَلَّى عَنِ الْجَاهِ وَيَسْعَى إِلَى جَاهٍ رُوحِيٍّ خَفِيٍّ، أَوْ يَتَخَلَّصُ مِنْ شَهْوَةٍ جَسَدِيَّةٍ وَيَسْتَبْدِلُ بِهَا شَهْوَةً تَفُوقُ وَالْاِسْتِعْلَاءَ. وَمِنْ هُنَا تَكْمُنُ دِقَّةُ الْمَشْرُوعِ الصُّوفِيِّ فِي أَنَّهُ لَا يَتَعَقَّبُ مَوْضُوعَ الرَّغْبَةِ فَقَطْ بَلْ بَنِيَّةَ الرَّغْبَةِ نَفْسِهَا. وَيُقْضَى هَذَا إِلَى سُؤَالٍ فُلْسُفِيٍّ آخَرَ: إِذَا كَانَتِ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ تَتَطَلَّبُ تَسْلِيمَ الْإِرَادَةِ، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَحَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ حُرِّيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ؟

إِنَّ الْجَوَابَ الصُّوفِيَّ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ يَقُومُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ إِلْعَاءِ الْإِرَادَةِ وَتَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنَ الْهَوَى فَالْمَطْلُوبُ لَيْسَ أَنْ يَصِيرَ الْإِنْسَانُ كَانِئاً بِلا إِرَادَةٍ، بَلْ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِرَادَتُهُ مِنْ إِرَادَةٍ مُسْتَنَّةٍ تَتَنَازَعُهَا الدَّوَاعِي إِلَى إِرَادَةٍ يَسْتَقِيمُ فِيهَا الْقَصْدُ وَالْمَعْنَى. وَهُنَا يَكْتَسِبُ التَّسْلِيمُ بُعْداً مُخْتَلِفاً؛ فَهُوَ لَيْسَ تَعْطِيلاً لِلْفِعْلِ، بَلْ تَحَرُّراً مِنْ وَهْمِ السَّيْطَرَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَمِنْ الْقَلْقِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنْ رَغْبَةِ الدَّاتِ فِي إِخْضَاعِ الْعَالَمِ كُلِّهِ لِمَشِيئَتِهَا. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يُمْكِنُ فَهْمُ التَّوَكُّلِ وَالرِّضَا لَا كَانْسِحَابٍ مِنَ الْفِعْلِ، بَلْ كَتَحْرِيرٍ لِلْفِعْلِ مِنَ الْاِسْتِعْبَادِ لِنتَائِجِهِ. فَالسَّائِلُ يَفْعَلُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَرَهُنُ قِيَمَةَ دَاتِهِ بِالنَّجَاحِ؛ وَيَسْعَى، وَلَكِنَّهُ لَا يَجْعَلُ تَحَقُّقَ غَرَضِهِ شَرْطاً لِسَكِينَتِهِ؛ وَيَخْتَارُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ أَنَّ وُجُودَهُ يَقُومُ عَلَى فَرْضِ إِرَادَتِهِ عَلَى كُلِّ مَا حَوْلَهُ. وَهُنَا يَتَحَوَّلُ التَّوَكُّلُ إِلَى تَحْرِيرٍ مِنَ عُبُودِيَّةِ النَّتِيجَةِ، وَالرِّضَا إِلَى تَحْرِيرٍ مِنَ اسْتِبْدَادِ التَّوَقُّعِ. حَيْثُ يَرْبُطُ الْغَزَالِيُّ الْحُرِّيَّةَ بِالْخِلَاصِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ وَهَمُومِ الدُّنْيَا. ثُمَّ يَفْسِّرُ كَمَالَ الْحُرِّيَّةِ بِعَدَمِ الْعُبُودِيَّةِ لِلشَّهَوَاتِ وَإِرَادَةِ الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ. (الغزالي، د.ت، ص311). فَيَقَابِلُ الْغَزَالِيُّ بَيْنَ طَلَبِ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْقُدْرَةِ بِوصفها كَمَالاً مَتَوَهِّماً،

وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْحُرِّيَّةِ بِوصفها مِنْ وَجْهِ الْكَمَالِ الْبَاقِي فِي النَّفْسِ. (الغزالي، د.ت، ص314) وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، فَإِنَّ مُفَارَقَةَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ لَا تُحَلُّ بِالْإِلْعَاءِ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ، بَلْ بِإِعَادَةِ فَهْمِهِمَا؛ فَالْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ هِيَ - فِي الْمَنْظُورِ الصُّوفِيِّ - إِخْرَاجُ الْإِنْسَانِ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالنَّاسِ، وَالْآثَاءِ، وَالْحُرِّيَّةُ لَيْسَتْ انْفِصَالاً عَنْ كُلِّ قَيْدٍ وَمَعْنَى (محمود، 1967، ص289). فَهِيَ قُدْرَةُ الدَّاتِ عَلَى أَلَّا تَسْتَعْبِدَ مَا لَيْسَ جَدِيراً بِأَنْ يَكُونَ غَايَتَهَا النِّهَائِيَّةُ.

وَمِنْ ثَمَّ، يَعْدُو التَّوْحِيدُ نَفْداً لِكُلِّ أَشْكَالِ التَّأَلُّيهِ الْخَفِيِّ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ؛ فَقَدْ يُؤَلِّهِ الْمَالُ دُونَ أَنْ يُسَمِّيَهُ إِلَهاً، أَوْ يُؤَلِّهِ السُّلْطَةَ وَالْمَكَانَةَ وَالصُّورَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالرَّغْبَةَ فِي الْاِعْتِرَافِ. وَمِنْ هُنَا تَكُونُ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ تَحْرِيراً لِلْقَلْبِ مِنْ أَنْ يَضَعَ مُطْلَقَهُ فِي شَيْءٍ نَسْبِيٍّ وَزَائِلٍ. وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَسْمَحُ لَنَا بِالْقَوْلِ إِنَّ

الْحُرِّيَّةُ الصُّوفِيَّةُ لَيْسَتْ حُرِّيَّةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ حُرِّيَّةٌ مِنْ كُلِّ مَا يَسْتَعْبِدُ الذَّاتَ وَيُقْعِدُهَا وَحْدَةَ الْقَصْدِ وَاسْتِقْلَالَهَا الْأَخْلَاقِي (محمود، 1967، ص312).

وَبِهَذَا يَتَجَلَّى الْمَعْنَى الْأَعْمَقُ لِمُفَارَقَةِ التَّحَرُّرِ: كُلَّمَا تَعَمَّقَتِ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ، ضَاقَتْ دَائِرَةُ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَعْبِدَ الْإِنْسَانُ مِنْ دُونِهِ. وَمِنْ هُنَا لَا تَكُونُ الْعُبُودِيَّةُ نَفْيًا لِلْحُرِّيَّةِ، بَلْ شَرْطًا لِتَحْوِيلِهَا مِنْ شِعَارٍ خَارِجِي إِلَى حَقِيقَةٍ بَاطِنِيَّةٍ تَمَسُّ نَمَطَ وُجُودِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ.

خُلَاصَةُ الْمَطْلَبِ الثَّانِي:

يَبْضُحُ أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ لَا تَقُومُ عَلَى التَّنَاقُضِ الْبَسِيطِ، بَلْ عَلَى مُفَارَقَةٍ تَكْشِفُ أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ تُرَادُّ لِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ مِنْ عُيُوبِيَّةٍ مَا سِوَاهُ.

وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ التَّحَرُّرَ الصُّوفِيَّ يَبْدَأُ مِنَ الدَّخْلِ، حَيْثُ يَتَّبِعُ سُلْطَةَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْخَوْفِ وَالتَّعَلُّقِ، وَيَسْعَى إِلَى تَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنْهَا. وَمِنْ هُنَا لَا تَكُونُ الْحُرِّيَّةُ مُجَرَّدَ امْتِلَاكِ لِلْخِيَارَاتِ، بَلْ قُدْرَةُ عَلَى امْتِلَاكِ مَصْنَدِ الْاِخْتِيَارِ نَفْسِهِ.

كَمَا أَظْهَرَ التَّحْلِيلُ أَنَّ التَّرَكِيَّةَ وَالْمُجَاهَدَةَ وَالزُّهْدَ وَالتَّوَكُّلَ وَالرِّضَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تُقْرَأَ عَلَى أَنَّهَا تَقْلِيصُ لِلْفَاعِلِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ يُمَكِّنُ قِرَاءَتَهَا بِوَصْفِهَا مُمَارَسَاتٍ لِتَفْكِكِ مَصَادِرِ الاسْتِعْبَادِ الْبَاطِنِيِّ وَإِعَادَةِ بِنَاءِ الْإِرَادَةِ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعُبُودِيَّةَ فِي التَّصَوُّرِ الصُّوفِيِّ تَبْلُغُ مَعْنَاهَا التَّحْرِيرِيَّ حِينَ تَنْقُلُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَدُّدِ مَرَاكِزِ الْخُضُوعِ إِلَى وَحْدَةِ الْقَصْدِ، وَمِنْ اسْتِعْبَادِ الرَّغْبَةِ إِلَى حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، وَمِنْ وَهْمِ امْتِلَاكِ الْعَالَمِ إِلَى امْتِلَاكِ الذَّاتِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْإِرَادَةُ بَيْنَ الْاِخْتِيَارِ وَالسَّلِيمِ:

تُمَثِّلُ الْإِرَادَةُ مَحَوْرًا أَسَاسِيًّا فِي بِنَاءِ مَفْهُومِ الْحُرِّيَّةِ؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ لَا تُفْهَمُ مِنْ دُونِ فَاعِلٍ يُرِيدُ وَيَخْتَارُ وَيُوجِّهُ فِعْلَهُ نَحْوَ غَايَةٍ مَا غَيْرَ أَنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ لَا تَظْهَرُ بِوَصْفِهَا قُوَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ عَنْ كُلِّ سِيَاقٍ، بَلْ تَنْشَكُلُ دَاخِلَ صِرَاعٍ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ وَمَعْنَى الْعُبُودِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ السُّؤَالَ الصُّوفِيَّ عَنِ الْإِرَادَةِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى: هَلْ يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ إِرَادَةً؟، بَلْ يَتَجَاوَزُهُ إِلَى سُؤَالٍ أَدَقٍّ: مَا طَبِيعَةُ هَذِهِ الْإِرَادَةِ؟ وَمَنْ يُوْجِّهُهَا؟ وَهَلْ كُلُّ مَا يُرِيدُهُ الْإِنْسَانُ دَلِيلٌ عَلَى حُرِّيَّتِهِ؟ فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُرِيدًا فِي الظَّاهِرِ، وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ مُسْتَلَبَةٌ مِنْ دَاخِلِهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَنْطَلِقُ مِنْ وَعْيٍ حُرٍّ وَقَصْدٍ أَخْلَاقِيٍّ، بَلْ مِنْ هَوَى مُسْتَبِدٍّ أَوْ خَوْفٍ عَمِيقٍ أَوْ رَغْبَةٍ فِي الْاِغْتِرَافِ أَوْ حَاجَةٍ إِلَى الْاِمْتِلَاكِ وَالسَّيْطَرَةِ. وَمِنْ ثَمَّ، يَصِيرُ تَحْرِيرُ الْإِرَادَةِ جُزْءًا مِنْ تَحْرِيرِ الذَّاتِ ذَاتِهَا. وَيُؤَكِّدُ الْغَزَالِيُّ عَلَى أَنَّ: مَنْ لَمْ يَقْهَرْ شَهْوَتَهُ فَهُوَ أَسِيرٌ لَهَا، وَمَنْ قَهَرَهَا فَقَدْ مَلَكَهَا، وَصَارَ زَمَامَهَا بِيَدِهِ. (الغزالي، د، ت، ص311). وَلِذَلِكَ يَكْتَسِبُ مُصْطَلَحُ الْمُرِيدِ دَلَالَةً خَاصَّةً فِي التَّصَوُّفِ؛ فَالْمُرِيدُ هُوَ الَّذِي دَخَلَ فِي سَبِيلِ رُوحِيَّةٍ تَقُومُ عَلَى تَهْذِيبِ الْإِرَادَةِ وَتَنْقِيَّتِهَا مِنَ التَّشَنُّبِ وَالتَّعَلُّقِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ لَا تَكُونُ نَقْطَةً نِهَائِيَّةً، بَلْ نَقْطَةً ابْتِدَاءً فِي مَسَارِ السُّلُوكِ؛ إِذْ يَبْدَأُ السَّالِكُ بِإِرَادَةٍ مُنْقَلَبَةٍ بِالرَّغَبَاتِ، ثُمَّ تَخْضَعُ هَذِهِ الْإِرَادَةُ لِعَمَلِيَّةٍ تَهْذِيبٍ وَتَصْفِيَّةٍ وَإِعَادَةٍ تُوْجِّهِيهِ. وَيَنْقُلُ الْقَشِيرِيُّ فِي بَابِ الْإِرَادَةِ مَعَانِي تَظْهَرُ أَنَّ الْإِرَادَةَ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ بِدَايَةِ الطَّرِيقِ وَعَلَامَةٌ انْتِقَالِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلْطَةِ الْعَادَةِ إِلَى وَعْيِ الْقَصْدِ؛ فَالْإِرَادَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَمَنٍّ، بَلْ خُرُوجٌ مِنْ غَفْلَةِ الْعَادَةِ إِلَى حَرَكَةٍ وَاعِيَةٍ نَحْوِ التَّغْيِيرِ (القشيري، 1989، ص378). وَيَشِيرُ الْقَشِيرِيُّ بِأَنَّ الْمُرِيدَ مَنْ صَدَقَ فِي طَلَبِ اللَّهِ وَأَعْرَضَ عَنِ حَظْوِظِ النَّفْسِ وَتَوَجَّهَ بِإِرَادَتِهِ إِلَى الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَالْقَرَبِ مِنْهُ تَعَالَى. (القشيري، 1989، ص411). وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْإِرَادَةَ الصُّوفِيَّةَ تَمُرُّ بِمَرَحَلَتَيْنِ مُتَدَاخِلَتَيْنِ: إِرَادَةُ السُّلُوكِ، ثُمَّ تَحْرِيرُ الْإِرَادَةِ نَفْسِهَا. فَبِالْمَرَحَلَةِ الْأُولَى يَخْتَارُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَسْلُكَ وَيُجَاهِدَ نَفْسَهُ وَيُرَاقِبَهَا؛ أَمَّا فِي الْمَرَحَلَةِ الثَّانِيَةِ فَيَبْدَأُ فِي مُرَاجَعَةِ بَنِيَّةٍ مَا يُرِيدُهُ، وَالْأَسْبَابَ الَّتِي تَجْعَلُهُ يُرِيدُهُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَحْرِيرَ الْإِرَادَةِ يَتَأَسَّسُ عَلَى التَّحَرُّرِ مِنْ سَيْطَرَةِ الشَّهَوَاتِ كَمَا يَرَى الصُّوفِيَّةُ. وَهُوَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ الْغَزَالِيُّ: «اعْلَمْ أَنَّ الشَّهْوَةَ إِذَا غَلَبَتْ أَفْسَدَتِ الْعَقْلَ، وَإِذَا أَفْرَطَتْ فِي قُوَّتِهَا أَفْسَدَتِ الْبَدَنَ، وَإِنَّمَا الْمَطْلُوبُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مَقْهُورَةً بِالْعَقْلِ لَا أَنْ تَكُونَ مَعْدُومَةً». (الغزالي، د، ت، ص323).

وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْمُجَاهَدَةُ تَهْذِيبٌ وَتَرْوِيطٌ لِلنَّفْسِ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الرِّيَاضَةِ أَنْ تَقْهَرِ النَّفْسَ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ، وَتَكْسِرَ سُلْطَانَ الشَّهْوَةِ، حَتَّى تَصِيرَ النَّفْسُ مَطْمَئِنَّةً مُنْقَادَةً لِلْعَقْلِ وَالشَّرْعِ. (عفيفي، 1963، ص234).

وَهُنَا يَبْزُرُ الْعَمَقُ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ: فَالْمُرِيدُ يَبْدَأُ طَرِيقَهُ بِالْإِرَادَةِ، لَكِنَّهُ يَتَعَلَّمُ فِي مَسَارِهِ أَلَّا يَتَعَبَّدَ لِإِرَادَتِهِ. وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْإِرَادَةَ نَفْسَهَا قَدْ تَنْحَوِّلُ إِلَى صَنَمٍ بَاطِنِيٍّ إِذَا أَصَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْعَالَمُ كُلُّهُ خَاضِعًا

لَمَا يَشْتَهِي وَيُخْطِطُ وَيَرْغَبُ يَشِيرُ الْمَكِي: التَّوَكُّلُ هُوَ تَرْكُ التَّدْبِيرِ وَالِاخْتِيَارِ، وَالاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ (المكي، 2005، ص278). وَهَذَا تَجَلَّى حَقِيقَةِ التَّحَرُّرِ بِالتَّخْلِیِّ وَالتَّسْلِيمِ لِلْحَقِّ تَعَالَى. وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ مَعْنَى التَّسْلِيمِ؛ فَهُوَ لَا يَقَابِلُ الْإِرَادَةَ بِالْإِلْغَاءِ، بَلْ يَقَابِلُ اسْتِبْدَادَ الْإِرَادَةِ بِحَدِّ أَخْلَاقِي وَرُوحِي فَالتَّسْلِيمُ لَا يَعْنِي أَنْ يَكْفَ الْإِنْسَانُ عَنِ الْفِعْلِ، وَلَا أَنْ يَتَخَلَّى عَنِ التَّدْبِيرِ الْمَعْفُولِ، بَلْ أَنْ يَعْنِي أَنْ إِرَادَتَهُ لَيْسَتْ مُطْلَقَةً، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ عَلَى الْفِعْلِ مَحْدُودَةٌ وَمُرْتَبِطَةٌ بِشُرُوطِ الْوُجُودِ. وَهَذَا يَتَقَاطَعُ الْمَعْنَى الصُّوفِيَّةُ لِلتَّسْلِيمِ مَعَ سُؤَالِ فَلَسْفِي مُهِمٍّ: هَلْ تَكْمُنُ حُرِّيَّةُ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَفْرُضَ إِرَادَتَهُ عَلَى الْعَالَمِ، أَمْ فِي أَنْ يَعْرِفَ حُدُودَ إِرَادَتِهِ وَيَعْمَلَ دَاخِلَهَا بِوَعْيٍ وَمَسْئُولِيَّةٍ؟ إِنَّ التَّجَرُّبَةَ الصُّوفِيَّةَ تَمِيلُ إِلَى الْاِحْتِمَالِ الثَّانِي؛ فَالْحُرِّيَّةُ لَيْسَتْ وَهْمُ الْقُدْرَةِ عَلَى السَّيْطَرَةِ الْمُطْلَقَةِ، بَلْ قُدْرَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا عَلَيْهِ، ثُمَّ يَتَحَرَّرَ مِنْ اسْتِعْبَادِ النَّاتِجَةِ. وَمِنْ هُنَا يَتَّصِلُ التَّسْلِيمُ بِالتَّوَكُّلِ. فَالتَّوَكُّلُ فِي بَنِيَّتِهِ الْأَصِيلَةِ لَا يَبْطُلُ السَّبَبُ، بَلْ يَبْطُلُ تَأْلِيهِ السَّبَبُ؛ أَي: يَمْنَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ الْأَسْبَابَ مَصْدَرًا نِهَائِيًّا لِأَمْنِهِ وَسَكِينَتِهِ. وَهَذَا يَتَحَوَّلُ التَّوَكُّلُ إِلَى صُورَةٍ مِنْ صُورِ تَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنَ الْقَلْقِ الْمَصَاحِبِ لِلتَّعَلُّقِ الْمُفْرَطِ بِالنَّاتِجِ. (محمود، 1967، ص356).

وَيُمْكِنُ فَهْمُ الرِّضَا فِي الرِّيَاقِ نَفْسِهِ؛ فَهُوَ لَا يَعْنِي أَنْ يُلْغِيَ الْإِنْسَانُ جِسْمَهُ بِالْأَلَمِ أَوْ رَفَصَهُ لِلظُّلْمِ أَوْ سَعْيُهُ إِلَى التَّغْيِيرِ، بَلْ أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنْ تَمَرُّقِ الدَّاتِ بَيْنَ مَا وَقَعَ وَمَا كَانَتْ تُرِيدُهُ أَنْ يَقَعَ. وَمِنْ هُنَا يَكُونُ الرِّضَا تَرْبِيَةً لِلدَّاتِ عَلَى أَلَّا تَجْعَلَ مَعْنَى وَجُودِهَا رَهْبًا يَتَحَقَّقُ كُلُّ رَغَائِبِهَا. وَلَعَلَّ ابْنَ عَطَاءٍ اللَّهُ السَّكَنْدَرِيَّ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ كَتَفَ هَذَا الْمَعْنَى فِي حِكْمِهِ؛ إِذْ تَدَوَّرَ عَدَدٌ مِنْ حِكْمِهِ حَوْلَ نَقْدِ التَّدْبِيرِ الْمُفْرَطِ وَالتَّعَلُّقِ بِالْمُرَادِ وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْأَسْبَابِ. (السكندري، 2006، ص98). وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ إِهْمَالُ السَّعْيِ، بَلْ تَحْرِيرُ الْإِنْسَانِ مِنْ وَهْمٍ أَنَّ أَمْنَهُ الدَّاخِلِيَّ مُعَلَّقٌ عَلَى أَنْ تَجْرِيَ الْأَشْيَاءُ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يُرِيدُهُ وَهَذَا يَتَجَلَّى السُّؤَالُ: هَلْ التَّخْلِیُّ عَنْ بَعْضِ الْإِرَادَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ صُورَةً أَرْقَى مِنَ الْحُرِّيَّةِ؟ فِي الظَّاهِرِ، نَبْدُو الْإِجَابَةَ بِالنَّفْيِ؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ تُفْهَمُ عَادَةً عَلَى أَنَّهَا تَوْسِيعٌ لِمَجَالِ الْإِرَادَةِ. وَلَكِنَّ التَّصَوُّفَ يَقْتَرِحُ مَنْظُورًا آخَرَ: فَقَدْ تَكُونُ الْحُرِّيَّةُ فِي التَّخْلِیِّ عَنْ إِرَادَةِ مَا لَا يَسْتَطَاعُ امْتِلَاكُهُ، وَفِي تَحْرِيرِ الدَّاتِ مِنْ أَنْ تَبْقَى عَالِقَةً فِي صِرَاعٍ دَائِمٍ مَعَ الْوُجُودِ.

وَهَذَا لَا يَعْنِي تَمْجِيدَ الْعَجْزِ؛ فَالْفَرْقُ كَبِيرٌ بَيْنَ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ. فَلَا اسْتِسْلَامَ سَلْبٌ لِلْإِرَادَةِ وَتَعْطِيلٌ لِلْفَاعِلِيَّةِ، أَمَّا التَّسْلِيمُ فَهُوَ فَهْمٌ لِحُدُودِ الْفَاعِلِيَّةِ وَمُمَارَسَتِهَا فِي مَجَالِهَا دُونَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى وَهْمِ السَّيْطَرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْرَأَ مَفْهُومُ اسْقَاطِ الْإِرَادَةِ فِي التَّصَوُّفِ قِرَاءَةً دَقِيقَةً. فَهُوَ لَا يَعْنِي - فِي أَفْقِهِ التَّرْبَوِيِّ - إِعْدَامَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْاِخْتِيَارِ، بَلْ اسْقَاطُ النَّزْعَةِ الْاسْتِبْدَادِيَّةِ فِي الْإِرَادَةِ؛ أَي: ذَلِكَ الْإِصْرَارُ الْبَاطِنُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَا يُرِيدُهُ الْإِنْسَانُ هُوَ الْمِقيَاسُ الْوَحِيدُ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالرِّضَا. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ اسْقَاطَ الْإِرَادَةِ لَا يَفْرَ كَفَنَاءِ الدَّاتِ، بَلْ كَاعَادَةِ تَرْبِيَةِ الدَّاتِ حَتَّى لَا تَكُونَ مَرْكَزَ الْكُونِ فِي وَعْيِهَا. وَهُوَ مَا يَقْرُبُ مِنْ مَعْنَى التَّخْلِیِّ عَنْ مَرْكَزِيَّةِ الْأَنَا دُونَ إِلْغَاءِ قِيَمَةِ الْإِنْسَانِ أَوْ مَسْئُولِيَّتِهِ.

يقول السكندري: "إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية". (السكندري، 2006، ص154).

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَكْتَسِبُ مَفْهُومُ الْفَنَاءِ عَنِ الْإِرَادَةِ دَلَالَةً فَلَسْفِيَّةً؛ فَالْفَنَاءُ لَا يَعْنِي فَنَاءَ الْإِنْسَانِ كَكَيَّانٍ، بَلْ يُمَكِّنُ فَهْمُهُ عَلَى أَنَّهُ فَنَاءُ الْإِرَادَةِ الْمُنْمَرَكَةِ حَوْلَ الْأَنَا، ثُمَّ إِعَادَةُ بِنَاءِ الْإِرَادَةِ فِي أَفْقِ أَخْلَاقِي وَرُوحِي أَوْسَعٍ. وَهَذَا يَتَقَاطَعُ الْفَنَاءُ مَعَ الْبَقَاءِ؛ فَإِذَا كَانَ الْفَنَاءُ تَفْكِكًا لِمَرْكَزِيَّةِ الْأَنَا، فَإِنَّ الْبَقَاءَ يُمَثِّلُ عَوْدَةَ الدَّاتِ إِلَى الْعَالَمِ بِوَعْيٍ مُخْتَلَفٍ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ السَّالِكَ لَا يُرَادُ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ عِلَاقَتُهُ بِهِ وَبِذَلِكَ تَظْهَرُ الْإِرَادَةُ الصُّوفِيَّةُ لَا كإِرَادَةِ قَهْرٍ، بَلْ كإِرَادَةِ تَحَوُّلٍ؛ وَلَا كَرَغْبَةٍ فِي إِخْضَاعِ الْعَالَمِ، بَلْ كَقُدْرَةٍ عَلَى تَهْدِيبِ الدَّاتِ وَتَغْيِيرِهَا. وَهَذَا تَنْتَقِلُ الْحُرِّيَّةُ مِنْ سُؤَالِ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْخَارِجِ إِلَى سُؤَالِ السِّيَادَةِ عَلَى الدَّاخِلِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، يُمَكِّنُ أَنْ نَفْهَمَ الْإِرَادَةَ الصُّوفِيَّةَ فِي ثَلَاثِ مَسْتَوِيَّاتٍ مُتَعَاقِبَةٍ:

الأولى: إِرَادَةُ الْخُرُوجِ مِنَ الْعَقْلَةِ وَالْعَادَةِ.

الثانية: إِرَادَةُ مَجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَتَحْرِيرِ الْقَصْدِ مِنَ الْهَوَى.

الثالثة: تَحَرُّرُ الْإِرَادَةِ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِنَفْسِهَا وَمِنْ وَهْمِ السَّيْطَرَةِ الْمُطْلَقَةِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ التَّسْلِيمَ يَبْدُو فِي نِهَائِيَّةِ الْمَسَارِ لَا كَنَقِصٍ لِلْحُرِّيَّةِ، بَلْ كَصُورَةٍ مِنْ صُورِ نُضْجِهَا؛ إِذْ تَكُونُ الدَّاتُ قَدْ تَعَلَّمَتْ أَنْ تَفْعَلَ بِمَسْئُولِيَّةٍ دُونَ أَنْ تَتَأَلَّ بِفِعْلِهَا، وَأَنْ تَخْتَارَ دُونَ أَنْ تَجْعَلَ اخْتِيَارَهَا مِقيَاسَ الْوُجُودِ كُلِّهِ.

وَهَذَا يَتَضَحُّ الْفَرْقُ بَيْنَ إِرَادَةِ تَطَلُّبِ أَنْ تَمْلِكَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِرَادَةِ تَسْعَى إِلَى أَنْ تَمْلِكَ نَفْسَهَا. فَالْأُولَى قَدْ تَقُودُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْاسْتِعْبَادِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا تَمْلِكُهُ الدَّاتُ قَدْ يَصِيرُ قَيْدًا عَلَيْهَا، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَتَجْعَلُ مِنَ التَّحَرُّرِ مَسَارًا لِبِنَاءِ الدَّاخِلِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، فَإِنَّ التَّصَوُّفَ يَقْتَرِحُ تَصَوُّرًا لِلْحُرِّيَّةِ لَا يَقُومُ عَلَى إِطْلَاقِ الْإِرَادَةِ، بَلْ عَلَى تَرْشِيدِهَا وَتَهْدِيئِهَا وَتَحْرِيرِهَا مِنْ عُبودِيَّةِ الْهَوَى؛ وَهُوَ مَا يَجْعَلُ التَّسْلِيمَ، فِي أَعَمِّ دَلَالَاتِهِ، لَيْسَ هَزِيمَةً لِلْإِرَادَةِ، بَلْ تَحَرُّرًا مِنْ تَوْهُمِهَا أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ.

خُلَاصَةُ الْمَطْلَبِ الثَّالِثِ:

يَبَيِّنُ أَنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ لَا تُفْهَمُ فِي مَعَزَلٍ عَنْ تَرْبِيَةِ الدَّاتِ وَتَحْرِيرِهَا؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَا يُرِيدُهُ الْإِنْسَانُ دَلِيلًا عَلَى حُرِّيَّتِهِ، مَا دَامَتْ إِرَادَتُهُ قَدْ تَكُونُ خَاصِصَةً لِلْهَوَى وَالْخَوْفِ وَالْعَادَةِ وَالتَّعَلُّقِ. وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ التَّجَرُّبَةَ الصُّوفِيَّةَ تَبْدَأُ بِالْإِرَادَةِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَنْتَهِي إِلَى تَأْلِيهِمَا؛ فَالْمُرِيدُ يَسْأَلُ بِإِرَادَتِهِ، ثُمَّ يَتَعَلَّمُ أَنْ يُخَضِّعَ إِرَادَتَهُ لِمَعْيَارِ أَخْلَاقِي وَرُوحِي يَتَجَاوَزُ الْهَوَى وَمَرْكَزِيَّةَ الْأَنَا. وَبِذَلِكَ، فَإِنَّ التَّسْلِيمَ لَا يُعَدُّ نَفْيًا لِلْحُرِّيَّةِ، مَا دَامَ لَا يُفْهَمُ بِوصْفِهِ اسْتِسْلَامًا وَتَعْطِيلًا لِلْفَاعِلِيَّةِ، بَلْ بِوصْفِهِ تَحَرُّرًا مِنْ وَهْمِ السَّيْطَرَةِ الْمُطْلَقَةِ وَمِنْ الْاسْتِعْبَادِ لِلنَّاتِجِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ الصُّوفِيَّةَ تَنْتَقِلُ مِنْ إِرَادَةِ امْتِلَاكِ الْعَالَمِ إِلَى إِرَادَةِ امْتِلَاكِ الدَّاتِ، وَمِنْ إِرَادَةِ مُسْتَبَدَّةٍ بِالْهَوَى إِلَى إِرَادَةِ وَاغِيَةٍ بِخُودِهَا وَمَسْئُولِيَّتِهَا.

وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَفْتَحُ الطَّرِيقَ أَمَامَ الْمُبْحَثِ التَّالِي، حَيْثُ يَنْتَقِلُ الْبَحْثُ مِنَ الْإِرَادَةِ وَالْعُبودِيَّةِ إِلَى دِرَاسَةِ تَحْرِيرِ الدَّاتِ دَاتِهَا: مِنْ سُلْطَةِ الْهَوَى إِلَى حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ.

بهذا يكتمل المبحث الأول بمطالبه الثلاثة: الحُرِّيَّةِ، ثم العُبودِيَّةِ ومفارقة التحرر، ثم الإرادة بين الاختيار والتسليم. وننتقل بعده إلى

المبحث الثاني: تحرير الدَّاتِ فِي التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ: مِنْ سُلْطَةِ الْهَوَى إِلَى حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ:

المطلب الأول: النَّفْسُ وَالْهَوَى وَإِسْكَالِيَّةُ الْاسْتِعْبَادِ الْبَاطِنِي:

لَا يَبْدَأُ التَّصَوُّفُ سُؤَالَ الْحُرِّيَّةِ مِنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ وَحْدَهُ، بَلْ يَرُدُّهُ، فِي مُسْتَوَى أَعَمِّ إِلَى بِنْيَةِ الدَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَفْسِهَا؛ إِذْ يَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَحَرَّرُ مِنْ سُلْطَةِ خَارِجِيَّةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَبْقَى مَحْكُومًا بِسُلْطَةِ أَشَدِّ خَفَاءٍ: سُلْطَةِ النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالتَّعَلُّقِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ السُّؤَالَ الصُّوفِيَّ لَا يَقِفُ عِنْدَ: مَنْ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَنْ يَكُونَ حُرًّا؟، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَى سُؤَالٍ أَكْثَرَ جَذَرِيَّةً مَا الَّذِي يَسْتَعْبِدُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَاخِلِهِ، وَيَجْعَلُهُ يَظُنُّ أَنَّهُ يُرِيدُ فِي حِينٍ أَنَّهُ مَقُودٌ بِمَا يُرِيدُ؟ وَهَذَا تَكْمُلُ الْقِيَمَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ لِمَفْهُومِ الْهَوَى؛ فَالْهَوَى لَيْسَ مَجْرَدَ رَغْبَةٍ عَابِرَةٍ، بَلْ يَغْدُو - حِينَ يَسْتَبِدُّ بِالْإِنْسَانَ - قُوَّةً تُعِيدُ تَشْكِيلَ وَغِيهِ وَاخْتِيَارِهِ، حَتَّى يَصِيرَ مَا تَفْرُضُهُ الرِّغْبَةُ عَلَيْهِ مُتَنَكِّرًا فِي صُورَةِ اخْتِيَارٍ حُرٍّ. وَقَدْ أُولَى الْعَزَالِيُّ تَهْذِيبَ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ مَكَانَةً مَرْكَزِيَّةً فِي إِحْيَاءِ غُلُومِ الدِّينِ، وَرَبَطَ صِلَاحَ الْإِنْسَانِ بِإِعَادَةِ تَرْتِيبِ قُوَى النَّفْسِ، حَتَّى لَا تَتَفَرَّدَ الشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ بِتَوْجِيهِ السُّلُوكِ. (الغزالي، د.ب، ص 321) وَبِذَلِكَ لَا تَكُونُ مَجَاهِدَةُ النَّفْسِ حَرْبًا عَلَى الْإِنْسَانِ، بَلْ مُحَاوَلَةً لِإِعَادَةِ التَّوَازُنِ إِلَى دَاخِلِهِ.

وَهَذَا التَّمْيِيزُ ضَرْوَرِيٌّ؛ لِأَنَّ قِرَاءَةَ التَّصَوُّفِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِقَمْعِ الرِّغْبَةِ قِرَاءَةٌ تَحْتَزِلُ تَجَرُّبَتَهُ فَالْمَقْصُودُ لَيْسَ أَنْ يَصِيرَ الْإِنْسَانُ بِلَا رَغْبَةٍ، بَلْ أَلَّا تَصِيرَ الرِّغْبَةُ سَيِّدًا عَلَى الْإِنْسَانِ. وَهَذَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ وُجُودِ الرِّغْبَةِ وَعُبودِيَّةِ الرِّغْبَةِ؛ فَالْأُولَى جُزْءٌ مِنَ الْبِنْيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَتَنْشَأُ حِينَ تَفْقَدُ الدَّاتُ قُدْرَتَهَا عَلَى مُسَاعَلَةِ مَا تَرُغَّبُ فِيهِ، وَتُصْبِحُ الرِّغْبَةُ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ مَا تَرَاهُ الدَّاتُ خَيْرًا وَجَدِيرًا بِالطَّلَبِ.

وَقَدْ كَشَفَ الْعَزَالِيُّ عَنْ هَذِهِ الْمُسْكَالَةِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنْ كَمَالِ الْحُرِّيَّةِ، حَيْثُ رَبَطَهَا بِالْخَلَاصِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ وَعَدَمِ الْعُبودِيَّةِ لَهَا. (الغزالي، د.ب، ص 345). وَهَذَا النَّصُّ يَكْتَسِبُ قِيَمَةً خَاصَّةً فِي بَحْثِنَا؛ لِأَنَّهُ يَجْعَلُ التَّحَرُّرَ مِنَ الشَّهْوَةِ جُزْءًا مِنْ تَعْرِيفِ الْحُرِّيَّةِ نَفْسِهَا. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْاسْتِعْبَادَ فِي الْمَنْظُورِ الصُّوفِيِّ لَا يَتَطَلَّبُ وُجُودَ سَيِّدٍ خَارِجِيٍّ؛ فَقَدْ يَحْمِلُ الْإِنْسَانُ سَيِّدَهُ فِي دَاخِلِهِ، حِينَ يَصِيرُ الْهَوَى مَرْجِعًا لِلْقَرَارِ، وَتَصِيرُ الشَّهْوَةُ مَعْيَارًا لِلْخَيْرِ، وَيَتَحَوَّلُ الْخَوْفُ إِلَى قُوَّةٍ تُعِيدُ صِيَاغَةَ اخْتِيَارَاتِهِ.

وَبِهَذَا يَكْتَشِفُ التَّصَوُّفُ عَنْ صُورَةٍ خَفِيَّةٍ لِلْعُبودِيَّةِ يُمْكِنُ تَسْمِيئُهَا الْعُبودِيَّةَ لِلدَّاتِ غَيْرِ الْمُهَذَّبَةِ؛ فَالْإِنْسَانُ يَكُونُ فِيهَا عَابِدًا لِمَا يَصْدُرُ عَنْ نَفْسِهِ، لَا لِأَنَّهُ اخْتَارَهُ بَعْدَ وَغْيٍ، بَلْ لِأَنَّهُ عَجَزَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ.

وبالتالي تتخذ مجاهدة النفس معنى تحريرياً، فهي لا تراد لإدلال الإنسان، بل لكي يسترد القدرة على أن يقول لرغبته: لا. وهذه القدرة على الرفض هي ذاتها مظهر من مظاهر الحرية؛ لأن من لا يستطيع أن يرفض ما يرب غب فيه لا يملك رغبته، بل يملكه رغبته. ويتضح هذا المعنى في مقام الزهد؛ فالزهد لا يكتسب قيمته من مجرد ترك الأشياء، بل من تحول علاقة الإنسان بها. ويعرض الطوسي للزهد ضمن المقامات الأساسية في السلوك الصوفي. (الطوسي، 1960، ص324). ومن هنا يمكن أن نعيد قراءة الزهد فلسفياً: فهو ليس حرية من الأشياء بمعنى التخلي المادي عنها فقط، بل حرية من سلطة الأشياء على الذات. وهنا ينشأ سؤال دقيق هل يملك الإنسان الشيء، أم يملكه الشيء؟ فقد يحوز الإنسان المال، ولكن خوفه من فقده يستعبده؛ وقد يملك المنصب، ولكن حرصه على بقائه يسلبه حريته؛ وقد يحصل على اعتراف الناس، ثم يصير أسيراً لضرورة المحافظة على صورته في أعينهم.

وعلى هذا، فإن التعلق أعمق من الامتلاك؛ إذ قد يملك الإنسان شيئاً من غير أن يتعلق به، وقد لا يملك شيئاً ويكون قلبه مستعبداً له. وهنا تظهر أهمية القلب في التحليل الصوفي للحرية؛ فالتحرير يجعل محور الحرية ألا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات. (القشيري، 1989، ص342). وتخصيص القلب هنا دال؛ لأن القيد قد يكون غير مرئي، ومع ذلك يكون أشدّ تحكماً في الذات من القيد المادي. ومن هنا نصل إلى فرق مركزي بين القهر والاستعباد: فالقهر يأتي الإنسان من خارجه، أما الاستعباد الباطني فقد يتحول إلى جزء من ذاته، حتى يصير الإنسان نفسه حارساً لقيد. وهذه من أهم النقاط التي يمكن أن يقدمها البحث فلسفياً؛ فالتحرر الصوفي لا يسعى فقط إلى كسر القيد، بل إلى كشف القيد الذي لا يعرف الإنسان أنه قيد.

ومن هنا تكون المراقبة والمحاسبة والمجاهدة أدوات لكشف مصادر التبعية الداخلية. وقد خصص الغزالي في الإحياء مباحث لمراقبة النفس ومحاسبتها، جاعلاً من مراجعة القصد والسلوك جزءاً من عملية الإصلاح الباطني. وفلسفياً، تكتسب المحاسبة هنا دلالة مهمة؛ لأنها تفرض أن الذات تستطيع أن تفصل نقدياً عن رغباتها، فتجعلها موضوعاً للنظر بدل أن تبقى مندمجة فيها. وهذا هو أول شرط للتحرر: أن أرى القيد قبل أن أسعى إلى كسره.

فما دام الإنسان يسمي هواه حرية، وتعلقه حباً، وخوفه حرصاً، وطمعه طموحاً، فإن الاستعباد يظل قادراً على الاستمرار؛ لأنه يعمل تحت أسماء تحجب حقيقة. ومن هنا يكتسب الوعي بالنفس وظيفة تحريرية؛ فالمراقبة لا تستهدف مجرد إحصاء الأخطاء، بل تستهدف كشف الآليات التي تصنع الفعل وتوجه القصد.

المطلب الثاني: المجاهدة والتركيب وإعادة بناء الإرادة:

إذا كان المطلب السابق قد كشف عن أن أهم أشكال الاستعباد هو ما يسكن الذات من داخلها، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: كيف تتحرر الذات مما يستعبدها؟ وهل يكفي أن يعي الإنسان قيوده حتى يتحرر منها، أم أن التحرر يتطلب ممارسة وتدريباً وتحولاً في بنية الإرادة نفسها؟

هنا تظهر المجاهدة والتركيب في صميم المشروع الصوفي؛ فهما ليستا مفهوماً أخلاقيين جزئيين، بل يمكن قراءتهما بوصفهما الينين في تحرير الذات وإعادة تشكيل الإرادة. والمجاهدة، في هذا السياق، لا تعني الصراع مع الجسد أو إعدام الرغبة، بل تعني مقاومة كل ما يتحول في النفس إلى قوة مستبدة بالإرادة. ومن ثم، فهي تربية على أن تبقى الرغبة جزءاً من الإنسان دون أن تصير سيده عليه.

وقد جعل الغزالي رياضة النفس وتهذيب الأخلاق جزءاً أساسياً من تكوين الإنسان؛ فالنفس عنده قابلة للتهذيب والتغيير، والأخلاق ليست بنية جامدة لا سبيل إلى تعديلها، بل يمكن تدريبها وإعادة توجيهها. (الغزالي، دت، ص356). ويربطها المكي بتهذيب النفس، وترويض النفس ومخالفة هواها، لا بمجرد المشقة الجسدية. فالمجاهدة: هي أن تلزم نفسك بما يرضي الله، وتمنعها مما يبعدها عنه. (المكي، 2005، ص298). وتستمر في ذلك حتى تتغير أخلاقها وعاداتها.

وهذا المعنى يكتسب أهمية فلسفية كبيرة؛ لأنه يعني أن الذات لا تقبل كما هي، بل نفهم بوصفها مشروعاً قابلاً للصياغة وإعادة البناء. ومن هنا، فإن المجاهدة تفرض أن الإنسان لا يساوي رغباته؛ فهو قادر على أن يقف منها موقفاً نقدياً، وأن يبين ما إذا كان ما يرب غب فيه يحقق إنسانيته أم يفقدها.

وَبِهَذَا تَكُونُ الْمَجَاهِدَةُ أَوَّلَ انْتِقَالٍ مِنَ الدَّاتِ الْمَفْعُولِ بِهَا إِلَى الدَّاتِ الْفَاعِلَةِ؛ فَالدَّاتُ الْمَفْعُولُ بِهَا هِيَ الَّتِي تَسْتَجِيبُ لِكُلِّ دَافِعٍ يَطْرَأُ عَلَيْهَا، أَمَّا الدَّاتُ الْفَاعِلَةُ فَهِيَ الَّتِي تُعِيدُ النَّظَرَ فِي دَوَافِعِهَا وَتُخْتَارُ مَا يَنْسَجِمُ مَعَ مَقْصِدِهَا الْأَخْلَاقِي وَالرُّوحِي.

وَهَذَا يَظْهَرُ أَنَّ قَمْعَ الْهَوَى لَيْسَ هُوَ التَّعْبِيرُ الْأَدَقُّ عَنِ الْمَجْهُودِ الصُّوفِيِّ؛ فَالْمَقْصُودُ لَيْسَ إِنْهَاءُ الْهَوَى، بَلْ إخراجُهُ مِنْ مَوْضِعِ السِّيَادَةِ. وَهَذَا الْفَرْقُ جَوْهَرِيٌّ؛ لِأَنَّ قَمْعَ الرَّغْبَةِ يَدُلُّ عَلَى غُنْفٍ دَاخِلِيٍّ، فِي جِبِنِ أَنَّ التَّرَكِّيَّةَ تَدُلُّ عَلَى إِعَادَةِ تَرْتِيبِ الْقُوَى بِحَيْثُ تَأْخُذُ كُلُّ قُوَّةٍ مَوْضِعَهَا دُونَ أَنْ تَسْتَبِدَّ بِالْإِنْسَانِ.

وَبِالتَّالِي تَنْتَقِلُ التَّرَكِّيَّةُ مِنْ مَجَالِ النَّقَاءِ الْأَخْلَاقِيِّ إِلَى مَجَالِ بِنَاءِ الْحُرِّيَّةِ؛ لِأَنَّ الدَّاتِ لَا تَصِيرُ حُرَّةً إِلَّا جِئْنَ تَكُونُ قَادِرَةً عَلَى أَنْ تَقُولَ لِرَغْبَتِهَا: هَذَا أَقْبَلُهُ، وَهَذَا أَرْفُضُهُ. وَقَدْ نَبَّهَ الطُّوسِيُّ فِي اللُّمَعِ إِلَى مَقَامَاتِ السُّلُوكِ وَمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنَ الزُّهْدِ وَالتَّوَكُّلِ وَالرِّضَا وَمُرَاقَبَةِ الْأَحْوَالِ، وَهِيَ مَقَامَاتٌ تُكْشِفُ عَنْ أَنَّ السَّالِكَ لَا يَتَحَوَّلُ بِمُجَرَّدِ الْمَعْرِفَةِ، بَلْ بِالتَّدْرِيبِ الْمُتَدَرِّجِ عَلَى تَغْيِيرِ عِلَاقَتِهِ بِذَاتِهِ وَبِالْأَشْيَاءِ. (الطُّوسِي، 1960، ص421). وَهَذَا التَّدَرُّجُ يَمْتَلِئُ وَاحِدًا مِنْ أَهَمِّ أَبْعَادِ التَّحَرُّرِ الصُّوفِيِّ؛ فَالْحُرِّيَّةُ هُنَا لَا تُفْهَمُ كَقَرَارٍ مَفَاجِيٍّ، بَلْ كَسَيَرُورَةٍ. وَالسَّيَرُورَةُ تَعْنِي أَنَّ الدَّاتِ تَتَغَيَّرُ تَدْرِيجِيًّا، وَأَنَّ الْإِرَادَةَ تَنْضَجُ وَتَتَحَوَّلُ عَبْرَ التَّجَرُّبَةِ. وَمِنْ هُنَا تَكُونُ الْمَجَاهِدَةُ نَقْلًا لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْإِنْفِعَالِ إِلَى الْفِعْلِ؛ فَالدَّاتُ الَّتِي تَنْفُذُ لِكُلِّ دَافِعٍ هِيَ دَاتٌ مُنْفَعِلَةٌ، أَمَّا الدَّاتُ الَّتِي تُقَدِّرُ عَلَى أَنْ تَتَأَمَّلَ دَوَافِعَهَا وَتُعِيدَ تَوْجِيهَهَا فَهِيَ دَاتٌ أَقْرَبُ إِلَى الْحُرِّيَّةِ.

وَهُنَا يَتَضَحُّ أَنَّ الْمَجَاهِدَةَ لَا تَتَعَلَّقُ بِالسُّلُوكِ الْخَارِجِيِّ وَحْدَهُ، بَلْ بِمَصْنَدِ السُّلُوكِ؛ أَيِ بِالنِّيَّةِ وَالْقَصْدِ وَالدَّافِعِ. فَقَدْ يَتَرَكُّ الْإِنْسَانُ فِعْلًا ظَاهِرًا، وَلَكِنَّ رَغْبَتَهُ فِيهِ تَبْقَى مُسَيِّطِرَةً عَلَيْهِ، وَقَدْ يَقُومُ بِفِعْلِ صَالِحٍ ظَاهِرًا، وَهُوَ مَدْفُوعٌ بِالرِّيَاءِ أَوْ طَلَبِ الْمَكَانَةِ.

وَبِالتَّالِي تَكُونُ تَرْكِيَّةُ الْقَصْدِ أَعَمَّقُ مِنْ مُجَرَّدِ إِصْلَاحِ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَا تَكْمُنُ فِي مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ فَقَطْ، بَلْ فِي لِمَاذَا يَفْعَلُهُ. وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الْمُرَاقَبَةَ الْمُحَاسِبَةَ عُضْرَيْنِ أَسَاسِيَيْنِ فِي مَسَارِ التَّحَرُّرِ؛ فَالْمُرَاقَبَةُ تُعَلِّمُ الدَّاتِ أَنَّ تَكُونَ حَاضِرَةً مَعَ نَوَايَاهَا وَدَوَافِعِهَا، وَالْمُحَاسِبَةُ تَجْعَلُهَا قَادِرَةً عَلَى مُرَاجَعَةِ مَا صَدَرَ عَنْهَا. وَقَدْ أَفْرَدَ الْغَزَالِيُّ فِي الْإِحْيَاءِ كِتَابًا لِلْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسِبَةِ، جَاعِلًا مِنْ مُرَاجَعَةِ النَّفْسِ وَيَرَى بَانَ: النِّيَّةِ جُزْءٌ مِنْ بِنَاءِ السُّلُوكِ. (الغزالي، د.ت، ص432). فَيؤكد الغزالي بان المحاسبة قبل العمل، وهي أن ينظر العبد فيما يريد أن يعمل، فإن كان الله تعالى أمضاه، وإن كان لغبر الله تركه. (الغزالي، د.ت، ص435).

وَفَلْسَافِيًّا، فَإِنَّ الْمُرَاقَبَةَ تُعَيِّرُ عَنْ تَشَكُّلِ وَعْيِي ثَانٍ دَاخِلِ الدَّاتِ؛ أَيِ: وَعْيِي لَا يَكْتَفِي بِأَنْ يَرْغَبَ وَيَفْعَلَ، بَلْ يُرَاقِبُ نَفْسَهُ وَهُوَ يَرْغَبُ وَيَفْعَلُ. وَهَذَا الْوَعْيُ الثَّانِي هُوَ مَا يَسْمَحُ لِلدَّاتِ بِأَنْ تَتَفَصَّلَ عَنْ تِلْقَائِيَّةِ الدَّافِعِ وَتُخَضِّعَهُ لِلتَّقْيِيمِ. وَيُشِيرُ الْغَزَالِيُّ إِلَى أَنَّ الْمَحَاسِبَةَ تَكُونُ عَلَى مَرَاثِلٍ: قَبْلَ الْعَمَلِ؛ لِمَاذَا أُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ هَذَا، وَأثناء الْعَمَلِ: هَلْ بَقِيتُ نِيَّتِي لِلَّهِ، أَمْ دَخَلَهَا الْهَوَى أَوْ طَلَبُ نَظَرِ النَّاسِ. وَبَعْدَ الْعَمَلِ: هَلْ أَدَيْتَهُ كَمَا يَنْبَغِي؟، وَعند الذَّنْبِ: لَا أُبْرِرُ لِنَفْسِي، بَلْ أَعْتَرِفُ بِالتَّقْصِيرِ وَأَعِزُّ عَلَى الْإِصْلَاحِ وَعند الطَّاعَةِ: لَا أَعْجَبُ بِعَمَلِي، بَلْ أَرَى فَضْلَ اللَّهِ وَتَوْفِيقَهُ. (الغزالي، د.ت، ص439).

وَمِنْ هُنَا تَبْدَأُ الْحُرِّيَّةُ فِي أَعَمِّ مَعَانِيهَا. وَهَذَا نَصَلَ إِلَى عِلَاقَةٍ دَقِيقَةٍ بَيْنَ التَّرَكِّيَّةِ وَالْوَعْيِ بِالدَّاتِ؛ فَالتَّرَكِّيَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَطْهِيرِ خُلُقِيٍّ، بَلْ هِيَ أَيْضًا تَعْمِيقٌ لِمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِدَوَافِعِهِ وَأَوْهَامِهِ وَمَخَافَتِهِ وَحَاجَاتِهِ الْخَفِيَّةِ. وَبِالتَّالِي يَكُونُ تَحْرِيرُ الدَّاتِ مُمْتَنِعًا مِنْ دُونَ مَعْرِفَتِهَا؛ فَالدَّاتُ لَا تَتَحَرَّرُ مِنْ قَبْدٍ لَا تَعْرِفُهُ، وَلَا تُعَيِّرُ دَافِعًا لَا تَعْتَرِفُ بِوُجُودِهِ. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ وَالْمَجَاهِدَةَ تَعْمَلَانِ مَعًا: الْمَعْرِفَةُ تُكْشِفُ الْقَيْدَ، وَالْمَجَاهِدَةُ تَعْمَلُ عَلَى تَفْكِيكِهِ.

وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ أَنَّ الطَّرِيقَ الصُّوفِيَّ لَا يَقُومُ عَلَى الْمَوْعِظَةِ وَحْدَهَا، بَلْ عَلَى الْمُمَارَسَةِ؛ فَالْمَعْرِفَةُ النَّظَرِيَّةُ بِخَطَرِ الْهَوَى لَا تَكْفِي، إِذْ قَدْ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ ضَرَرَ شَهْوَةِ مَا، وَيَبْقَى عَاجِزًا عَنْ مُقَاوَمَتِهَا. وَمِنْ هُنَا تَأْتِي الرِّيَاضَةُ وَالتَّدْرِيبُ وَالنَّقْلُ وَالتَّدَرُّجُ لِنَقْلِ الْمَعْرِفَةِ مِنَ الْعَقْلِ إِلَى بَنِيَّةِ السُّلُوكِ وَالْإِرَادَةِ.

وَهَذَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ النَّصُوفَ يَمَيِّزُ بَيْنَ مَعْرِفَةِ الْحُرِّيَّةِ وَاكْتِسَابِ الْحُرِّيَّةِ؛ فَالْأُولَى تَحْصُلُ بِالْفَهْمِ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَتَحْتَاجُ إِلَى مُجَاهِدَةٍ وَتَدْرِيبٍ وَتَحَوُّلٍ فَتَكُونُ التَّرَكِّيَّةُ فِي حَقِيقَتِهَا تَشْكِيلًا لِلْعَادَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ؛ فَمَا يَبْدَأُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ مُجَاهِدَةً وَمُقَاوَمَةً، يَتَحَوَّلُ مَعَ الزَّمَنِ إِلَى سَحِيَّةٍ وَمَيْلٍ رَاسِخٍ. وَهَذَا يَظْهَرُ أَنَّ الدَّاتِ الصُّوفِيَّةَ لَا تُطَالَبُ بِأَنْ تَبْقَى دَائِمًا فِي حَالَةِ صِرَاعٍ مَعَ نَفْسِهَا، بَلْ أَنْ تَنْتَقِلَ مِنَ الصِّرَاعِ إِلَى التَّوَارُنِ.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تُقَاسُ بِمِقْدَارِ الْمَعْرَكَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، بَلْ بِمِقْدَارِ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ الدَّاتُ مِنْ اسْتِقَامَةٍ وَإِتْرَانٍ؛ أَيِ: أَنْ يَصِيرَ الْخَيْرُ مَأْلُوفًا، وَأَنْ تَقْدَرَ بَعْضُ أَشْكَالِ الْهَوَى فُذْرَتَهَا عَلَى الْاسْتِبْدَادِ بِالْإِرَادَةِ.

حيث هنا تتجلى القيمة الأخلاقية للتركيبية؛ فهي لا تسعى إلى صنع إنسان يكبث نفسه دائماً، بل إلى صنع إنسان تتغير رغباته نفسها، فلا يبقى الخير عنده عبئاً خارجياً، بل يصير جزءاً من تكوينه. وبالتالي يتخذ الصبر دالةً تحريريةً أيضاً؛ فالصبر لا يعني السكون والاستسلام، بل يعني قدرة الإرادة على الثبات أمام الضغط والرغبة والألم، وهو بهذا محك لمدى حرية الذات من سلطة الانفعال. (محمود، 1967، ص435). وكذلك التوكل؛ فهو لا يسلب الإرادة، بل يحزرها من التعلق المرضي بالنتيجة. ويعرض الطوسي مقام التوكل في سياق المقامات الصوفية، وهو ما يظهر أن التوكل جزء من تربية العلاقة بالسبب والنتيجة. ويشار إليه باعتباره مقاما من مقامات السالكين. وأنه يرتبط بثقة القلب بالله مع عدم ترك ما أوجبه الله من السعي. (الطوسي، 1960، ص436). ومن دلالاته الأساسية عنده أن التوكل هو عمل القلب. (الطوسي، 1960، ص437).

وليس مجرد ترك العمل بالأسباب. فالعبد قد يتحرك ويكتسب ويطلب الرزق، لكن قلبه لا يعتمد على السبب، وإنما يعتمد على الله ويذكر الطوسي أن أهل التوكل لهم درجات وأحوال مختلفة وأن حقيقة التوكل تزداد كلما قوي يقين العبد بأن الله هو المدبر لأمره. ويميز مفهوم التوكل ومعانيه. فترك التدبير: ألا يعتمد الإنسان على تدبيره لنفسه اعتماداً مطلقاً. وترك الأسباب ليس هو التوكل بالضرورة. واعتماد القلب على الله وهذا جوهر حقيقة التوكل. (الطوسي، 1960، ص438).

ومن هنا يصير التوكل مرحلة من مراحل تحرير الإرادة من القلب؛ فالإنسان ينزل ما عليه، ولكنه لا يجعل تحقق نتيجة معينة شرطاً لسكينته. وفي المقابل، فإن الرضا يمثل تحريراً من صراع الذات مع ما وقع بهد ووقعه؛ فهو لا يلغي الفعل، بل يغير العلاقة بما لا يمكن تغييره. وهنا يصير الرضا جزءاً من حرية الإرادة من أن تبقى مسجونة في ما لم يعد ممكناً رده. (محمود، 1967، ص439).

ومن ثم، فإن المجاهدة والتركيبية لا تعملان على تطبيق مجال الحرية، بل على توسيع مجالها الداخلي؛ أي: زيادة قدرة الإنسان على أن يختار في وجه ما كان يستبد به. وهذا يعني أن الذات الصوفية تصير أكثر حرية ليس لأنها صارت تفعل أكثر، بل لأنها صارت أقل اضطراباً إلى الانقياد لإدفعها.

حيث يتحول معنى الحرية من كثرة الحركة إلى قوة السيادة على الذات؛ فقد يكون الإنسان كثير الحركة وقليل الحرية، وقد يكون قادراً على ضبط نفسه فيبدو أقل اندفاعاً، ولكنه أكثر حرية.

وهنا يتحقق الانتقال من تحرير الإرادة إلى بناء الذات الحرة؛ فالذات الحرة لا تعرف بما تملكه من خيارات فقط بل بما تملكه من قدرة على أن لا تكون رهينة لخيار واحد تفرضه الرغبة أو الخوف أو العادة. وبذلك يمكن القول إن المجاهدة في التصوف هي تربية على الحرية، وإن التركيبية هي إعادة صياغة للذات التي تمارس الحرية.

خلاصة المطلب الثاني:

يتضح أن المجاهدة والتركيبية تمثلان قلب العملية التحريرية في التجربة الصوفية؛ فالذات لا تتحرر بمجرد وعيها بقيودها، بل تحتاج إلى تدريب يعيد تشكيل الإرادة وينقلها من الانقياد للدافع إلى القدرة على التقييم والاختيار. وقد ظهر أن المجاهدة لا تعني إلغاء الرغبة، بل نزع سلطتها عن مركز الإرادة؛ كما أن التركيبية لا تقوم على قمع الذات، بل على إعادة ترتيب قواها وبناء أثرانها الداخلي. ومن هنا تتحول المراقبة والمحاسبة والصبر والتوكل والرضا إلى أدوات لتحرير الذات من الاستعباد للهوى والخوف والنتيجة والتعلق.

وبذلك تصير الحرية في التجربة الصوفية سيروية في بناء الذات، لا مجرد حق في الاختيار؛ وهو ما يمهد للمطلب التالي الذي سينتقل إلى أعماق نقطة في هذا المسار: الفناء والبقاء وإشكالية تحرر الذات.

المطلب الثالث: الفناء والبقاء وإشكالية تحرر الذات:

يلغ مسار تحرير الذات في التجربة الصوفية ذروتها حين ينتقل البحث من تهذيب الرغبة ومجاهدة الهوى إلى سؤال أعمق يمس بنية الذات نفسها: هل يكفي أن تتحرر الذات من بعض رغباتها، أم أن التحرر الأعمق يتطلب تجاوز مركزية الأنا ذاتها؟ هنا يبرز مفهوم الفناء والبقاء بوصفهما من أكثر المفاهيم الصوفية كثافة من الناحية الفلسفية؛ إذ لا يتصلان فقط بحالة وجدانية عابرة، بل يفتحان سؤلاً عن هوية الذات، وحدود حضور الأنا، وطبيعة التحول الذي يطرا على الإنسان حين تتراجع مركزية رغباته الخاصة أمام حضور

المعنى المطلق. وَقَدْ عَرَضَ الطُّوسِيُّ لمفاهيم الفناء والبقاء في اللمع ضمن مباحث الأحوال والمقامات الصوفية، بما يكشف أن الفناء لا يُفهم باعتباره عدماً محضاً، بل باعتباره تحولاً في نسبة السالك إلى ذاته وإلى ما سوى الله. (الطوسي، 1960، ص329).

وَمِنْ هُنَا، يَنْبَغِي التَّفْرِيقُ بَيْنَ فَنَاءِ الذَّاتِ وَالفَنَاءِ عَنِ الذَّاتِ؛ فالأول قد يُفهم باعتباره إلغاء وجودها للإنسان، وهو معنى لا ينسجم مع البنية الأخلاقية للسلوك الصوفي، أما الثاني فيشير إلى تجاوز هيمنة الأنا وتخفيف استبدادها بمركز الوعي والإرادة.

وَهَذَا التَّمْيِيزُ ضَرْوَرِيٌّ لِبَحْثِنَا؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ، إِذَا فَهِمَتْ صُوفِيًّا، لَا تَكُونُ حُرِّيَّةَ الْأَنَا فِي تَوْسِيعِ سُلْطَتِهَا، بَلْ قَدْ تَكُونُ حُرِّيَّتَهَا مِنْ سُلْطَةِ نَفْسِهَا. وَهَذَا تَظْهَرُ الْمُفَارَقَةُ: قَدْ يَكُونُ أَكْبَرُ قَبْدٍ عَلَى الذَّاتِ هُوَ تَعَلُّقُهَا الدَّائِمُ بِنَفْسِهَا. فَمَا دَامَ الْإِنْسَانُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَحَوْرًا لِكُلِّ قِيَمَةٍ وَمَعْنَى، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ يَتَحَوَّلُ إِلَى أَدَاةٍ لِإِثْبَاتِ الذَّاتِ أَوْ حِمَايَتِهَا أَوْ تَوْسِيعِ صُورَتِهَا. وَمِنْ هُنَا يَتَحَوَّلُ الْأَنَا إِلَى مَصْدَرٍ خَفِيِّ لِلْإِسْتِعْبَادِ، لِأَنَّهُ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مُرْتَبِطًا بِصُورَتِهِ وَمَكَانَتِهِ وَمَطَالِبِهِ وَتَوَقُّعَاتِهِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْفَنَاءَ الصُّوفِيَّ يُمَكِّنُ قِرَاءَتَهُ فُلْسَفيًّا بِوصفه تفكيكًا لِمَرْكَزِيَّةِ الْأَنَا، لَا مَحَوْرًا لُجُودِ الْإِنْسَانِ. ويشير الطوسي إلى مستويات للفناء والبقاء، منها: فناء الجهل وبقاء العلم، فناء المعصية وبقاء الطاعة، فناء الغفلة وبقاء الذكر، فناء رؤية حركات العبد وبقاء رؤية عناية الله به. (الطوسي، 1960، ص334). وَيَسْتَدْعِي هَذَا التَّحْلِيلُ مَفْهُومَ الْبَقَاءِ؛ لِأَنَّ الْفَنَاءَ لَوْ انْتَهَى إِلَى مَحَوْرِ الذَّاتِ نَهَانِيًا لَمَا بَقِيَ مَجَالٌ لِلْمَسْئُولِيَّةِ أَوْ الْأَخْلَاقِ أَوْ الْفِعْلِ. أما البقاء فيكشف أن التجربة الصوفية لا تنتهي بخروج الإنسان من العالم، بل بعودته إليه بعد تحول في علاقته بنفسه وبالآخرين.

وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ فَهْمُ الْبَقَاءِ عَلَى أَنَّهُ عَوْدَةُ الذَّاتِ بَعْدَ تَحَرُّرِهَا مِنْ مَرْكَزِيَّتِهَا الضَّرِيقَةِ؛ أي عودة الإنسان إلى الفعل، لكن من موقع أخلاقي وروحي مختلف. وَهَذَا يَجْعَلُ الْفَنَاءَ وَالْبَقَاءَ حَلَقَتَيْنِ فِي بَنِيَّةٍ وَاحِدَةٍ: الْفَنَاءُ تَفْكِيكٌ، وَالْبَقَاءُ إِعَادَةُ بِنَاءٍ.

وَفِي هَذَا الْإِطَارِ، يَكْتَسِبُ مَفْهُومُ الْفَنَاءِ دَلَالَةً تَحْرِيرِيَّةً؛ فَالْإِنْسَانُ يَتَحَرَّرُ مِنْ وَهْمِ أَنَّهُ مَرْكَزُ الْوُجُودِ، وَمِنْ ضَرْوَرَةِ أَنْ تَجْرِيَ الْأَشْيَاءُ وَفَقَ مَا يُرِيدُهُ، وَمِنْ حَاجَتِهِ الدَّائِمَةِ إِلَى إِثْبَاتِ ذَاتِهِ. وَهَذَا تَكْمُنُ صِلَةُ الْفَنَاءِ بِالْحُرِّيَّةِ: فَالْحُرِّيَّةُ لَيْسَتْ أَنْ تَتَضَخَّمَ الْأَنَا، بَلْ أَنْ تَتَحَرَّرَ مِنْ ضَرْوَرَةِ تَضَخُّمِهَا. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْفَنَاءَ عَنِ الْهَوَى يَعْنِي أَنْ تَفْقِدَ الرَّغْبَةَ سُلْطَتِهَا عَلَى الْقَصْدِ، وَالْفَنَاءَ عَنِ الدَّعْوَى يَعْنِي أَنْ تَفْقِدَ الْأَنَا حَاجَتَهَا إِلَى تَمَلُّكِ الْفَضْلِ وَالنِّسْبَةِ وَالْمَكَانَةِ.

ويؤكد الغزالي على الفناء في التوحيد والشهود أن يغلب على قلب العارف شهود الواحد حتى لا يرى نفسه والخلق استقلالاً. (الغزالي، دت، ص465).

وَيَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَا أَشارَ الْقَشِيرِيُّ مِنْ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ تَقُومُ عَلَى: أَلَّا يَكُونَ الْقَلْبُ تَحْتَ رِقِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ الْأَهْوَاءِ. (القشيري، 1989، ص378). فَإِذَا كَانَ الْهَوَى مَصْدَرًا لِلرِّقِّ، فَإِنَّ الْفَنَاءَ عَنْهُ صُورَةٌ مِنْ صُورِ التَّحَرُّرِ. وَهَذَا التَّحَوُّلُ لَا يَعْنِي أَنَّ الذَّاتَ تَفْقِدُ وَجْهَهَا أَوْ مَسْئُولِيَّتَهَا، بَلْ يَعْنِي أَنْ تَتَغَيَّرَ عِلَاقَتُهَا بِوَجْهِهَا وَمَسْئُولِيَّتِهَا؛ فَلَا تَعُودُ تَتَصَرَّفُ مِنْ مَنَظَرِ تَحْقِيقِ الْأَنَا، بَلْ مِنْ مَنَظَرِ تَحْقِيقِ الْمَعْنَى وَالْخَيْرِ. وَمِنْ هُنَا، يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْبَقَاءَ هُوَ عَوْدَةُ الْحُرِّيَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بَعْدَ تَحَرُّرِهَا مِنَ الْأَنَا. وَهَذَا هُوَ مَا يَمْنَعُ النَّصْرَفَ مِنَ السُّقُوطِ فِي الْفَاعِلِيَّةِ؛ فَالسَّالِكُ، بَعْدَ الْفَنَاءِ، لَا يَصِيرُ عَاجِزًا عَنِ الْفِعْلِ، بَلْ يُعِيدُ الْفِعْلَ مِنْ أَفْقٍ مُخْتَلَفٍ.

وَمِنْ هُنَا يَتَّصِلُ الْفَنَاءُ بِالْإِخْلَاصِ؛ فَالْإِخْلَاصُ فِي أَحَدٍ أَعَمَّقَ مَعَانِيَهُ هُوَ تَحْرِيرُ الْفِعْلِ مِنْ حَاجَةِ الْأَنَا إِلَى أَنْ تُرَى وَتُعْرَفَ وَتُمدَّحَ. وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الْإِخْلَاصَ شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ تَحْرِيرِ الذَّاتِ مِنْ نَظَرِ الْآخَرِ؛ فَالذَّاتُ لَا تَعُودُ رَهِينَةً لِلنَّصْفِيقِ أَوْ الْاعْتِرَافِ أَوْ الْمَكَانَةِ.

وَفِي هَذَا الرِّيَاقِ، يُمَكِّنُ رَبْطُ الْفَنَاءِ بِالزُّهْدِ وَالْمُجَاهَدَةِ؛ فَالزُّهْدُ يُحَرِّرُ الذَّاتَ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِالْأَشْيَاءِ، وَالْمُجَاهَدَةُ تُحَرِّرُهَا مِنْ سُلْطَةِ الْهَوَى، أَمَّا الْفَنَاءُ فَيَنْجِيهِ إِلَى مَصْدَرٍ أَعَمَّقَ: تَعَلُّقِ الذَّاتِ بِذَاتِهَا. وَمِنْ هُنَا تَنْتَضِحُ سِرُّوَرَةُ التَّحَرُّرِ الصُّوفِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَسْتَوِيَّاتٍ: الْأُولَى التَّحَرُّرُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، الثَّانِيَّةُ: التَّحَرُّرُ مِنَ الْهَوَى، الثَّالِثَةُ: التَّحَرُّرُ مِنَ مَرْكَزِيَّةِ الْأَنَا.

وَبِهَذَا يَكُونُ الْفَنَاءُ أَعَمَّقَ مَرَاكِزِ التَّحَرُّرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَوْضُوعٍ خَارِجِيٍّ، بَلْ بِالْعِلَاقَةِ الَّتِي تُقِيمُهَا الذَّاتُ مَعَ نَفْسِهَا. وَهَذَا يَبْرِزُ سَوَالَ فُلْسَفيٍّ مُهِمٍّ: إِذَا تَحَرَّرَتِ الذَّاتُ مِنْ مَرْكَزِيَّتِهَا، فَمَا الَّذِي يَبْقَى مِنْهَا؟

وَالْجَوَابُ الَّذِي يُمَكِّنُ اسْتِخْلَاصَهُ مِنْ بَنِيَّةِ التَّصَوُّفِ هُوَ أَنَّ الَّذِي يَبْقَى لَيْسَ عَدَمًا، بَلْ ذَاتٌ مُعَادَةُ التَّرْتِيبِ؛ ذَاتٌ خَتَ فِيهَا سُلْطَانُ الْهَوَى، وَتَرَاوَعَتْ فِيهَا مَرْكَزِيَّةُ الْأَنَا، وَاتَّسَعَتْ فِيهَا حُضُورُ الْآخَرِ وَالْمَعْنَى وَالْمَسْئُولِيَّةِ.

ولذلك يربط الصوفية بين الفناء والأخلاق الحميدة، حيث يمثل الفناء في بعده الروحي، الفناء عن ذميم الاخلاق وسيطرة الهوى، والبقاء بحسن الاخلاق. ويؤكد الجنيد بأن الفناء هو بقاء بحسن الخلق. (الجنيد، 2005، ص92). ويرى الغزالي الفناء من خلال تركية النفس. فيعرفه بأنه "صلاح" للباطن وتطهير للقلب". (الغزالي، د.ت، 466). فكلما فني الإنسان عن أنانيته وعن هوى النفس، تحقق بالبقاء بحسن الخلق، وكلما فني عن الطمع والجشع والانانية تحقق بالعتاء والايتار، وكلما فني عن الكذب تحقق بالصدق، وكلما فني عن القسوة تحقق بالإنسانية والرحمة.

وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْبَقَاءَ يَحْمِلُ بَعْدًا أَخْلَاقِيًّا وَإِنْسَانِيًّا؛ لِأَنَّ الدَّاتِ الَّتِي تَعُودُ بَعْدَ النَّحُولِ تَكُونُ أَقْدَرَ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْخِدْمَةِ وَالْإِيتَارِ وَتَجَاوِزُ مَرَكِزِيَّةَ الْمَصْلَحَةِ الدَّائِيَّةِ. وبالتالي يَظْهَرُ أَنَّ الْفَنَاءَ، عَلَى خِلَافِ مَا قَدْ يُتَوَهَّمُ، لَيْسَ نِهَآيَةً لِلْأَخْلَاقِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ شَرْطًا لِعُمُقِهَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَصِيرُ قَادِرًا عَلَى الْعَطَاءِ الْحَقِيقِيِّ إِلَّا حِينَ يَتَحَرَّرُ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَرَكِزُ الدَّائِمُ. حيث يَتَحَوَّلُ الْفَنَاءُ مِنْ مَفْهُومٍ غَامِضٍ إِلَى صِيغَةٍ فِي تَحْرِيرِ الدَّاتِ مِنْ أَنَانِيَّتِهَا، وَيَتَحَوَّلُ الْبَقَاءُ إِلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ الدَّاتِ فِي أَخْلَاقِيٍّ وَرُوحِيٍّ أَوْسَعٍ. وبذلك يَتَّضِحُ أَنَّ التَّجَرِبَةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تُرِيدُ أَنْ تُنْهِيَ الدَّاتِ، بَلْ أَنْ تُخَلِّصَهَا مِنْ أَشْكَالِ التَّمَرُّكِزِ الَّتِي تَجْعَلُهَا مَقْبُودَةً بِدَاتِهَا.

وَمِنْ هُنَا يُتَجَلَّى لَنَا الْإِيتَارُ: تَفْقُدُ الدَّاتُ بَعْضَ مَرَكِزِيَّتِهَا لِكَيْ تَكْتَسِبَ حُرِّيَّتَهَا. وَبِهَذَا الْمَعْنَى فَإِنَّ الْفَنَاءَ وَالْبَقَاءَ يُمَثِّلَانِ مَرَحَلَةً نَاصِجَةً فِي مَشْرُوعِ تَحْرِيرِ الدَّاتِ؛ فَالْحُرِّيَّةُ لَا تَعُودُ فَقَطْ تَحَرُّرًا مِنَ الْقَيْدِ، بَلْ تَصِيرُ تَحَرُّرًا مِنَ الدَّاتِ الَّتِي تَصْنَعُ الْقَيْدَ وَتُعِيدُ إِتْنَاجَهُ.

خُلَاصَةُ الْمَطْلَبِ الثَّالِثِ:

يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَفْهُومِي الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ يُمَثِّلَانِ ذُرْوَةَ الْمَسَارِ التَّحَرُّرِيِّ فِي التَّجَرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ فَالدَّاتُ لَا تَكْتَفِي بِالتَّحَرُّرِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْهَوَى، بَلْ تَتَّجِعُ إِلَى تَحْرِيرِ نَفْسِهَا مِنْ مَرَكِزِيَّةِ الْأَنَا.

وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْفَنَاءَ لَا يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَلَى أَنَّهُ الْغَاءُ لِلْإِنْسَانِ، بَلْ يَوْصَفُهُ تَفَكُّيًّا لِهَيْمَنَةِ الْأَنَا وَتَعَلُّقِهَا بِدَاتِهَا؛ فِي حِينَ يُمَثِّلُ الْبَقَاءَ عَوْدَةَ الدَّاتِ إِلَى الْعَالَمِ بَعْدَ إِعَادَةِ تَرْتِيبِهَا رُوحِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا. وَبِهَذَا تَكُونُ الْحُرِّيَّةُ الصُّوفِيَّةُ قَدْ انْتَقَلَتْ مِنْ تَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنَ الْهَوَى إِلَى تَحْرِيرِ الدَّاتِ مِنْ مَرَكِزِيَّةِ الْأَنَا، ثُمَّ إِلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ الْفَاعِلِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا، يَصِيرُ الْفَنَاءُ وَالْبَقَاءُ لَيْسَا مَفْهُومَيْنِ صُوفِيَّيْنِ مُغْلَقَيْنِ، بَلْ مَدْخَلًا لِقِرَاءَةِ مَسْأَلَةِ الْحُرِّيَّةِ وَالْهَوِيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ وَالدَّاتِ مِنْ مَنْظُورِ فُلْسَفِيٍّ صُوفِيٍّ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ مِنْ تَحْرِيرِ الدَّاتِ إِلَى التَّحَرُّرِ الْإِنْسَانِيِّ: الْأَبْعَادُ الْفُلْسَفِيَّةُ وَالْأَخْلَاقِيَّةُ لِلْحُرِّيَّةِ الصُّوفِيَّةِ: الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: مِنَ الْحُرِّيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ إِلَى الْفَاعِلِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ:

إِذَا كَانَ التَّصَوُّفُ قَدْ جَعَلَ مِنْ تَحْرِيرِ الدَّاتِ مِنَ الْهَوَى وَالتَّعَلُّقِ وَمَرَكِزِيَّةِ الْأَنَا شَرْطًا لِبِنَاءِ الْحُرِّيَّةِ، فَإِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَفْرُضُ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ هُوَ: مَاذَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ بِحُرِّيَّتِهِ بَعْدَ أَنْ يَتَحَرَّرَ؟

وَهَذَا السُّؤَالَ ضَرْوَرِيٌّ؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ إِذَا انْتَهَتْ عِنْدَ تَحْرِيرِ الْفَرْدِ مِنْ قُبُودِ الْبَاطِنِيَّةِ، مِنْ دُونِ أَنْ تَتَعَكَّسَ عَلَى عِلَاقَتِهِ بِالْآخَرِ وَبِالْعَالَمِ، فَإِنَّهَا تَظَلُّ حُرِّيَّةً نَاقِصَةً. وَمِنْ هُنَا تَنْتَقِلُ الدِّرَاسَةُ مِنَ الْحُرِّيَّةِ مِنَ إِلَى الْحُرِّيَّةِ مِنَ أَجْلِ: أَيٍّ: مِنَ التَّحَرُّرِ مِنَ الْهَوَى وَالتَّعَلُّقِ إِلَى السُّؤَالَ عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي تُوجِّهُ إِلَيْهَا الْإِرَادَةُ بَعْدَ تَحْرِيرِهَا. وَهَذَا تَظْهَرُ الْقِيَمَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ لِلتَّصَوُّفِ؛ فَغَايَةُ التَّركِيَّةِ لَيْسَتْ إِتْنَاجُ دَاتٍ مُنْعَلَقَةٍ عَلَى طَهَارَتِهَا الرُّوحِيَّةِ، بَلْ بِنَاءُ إِنْسَانٍ تَتَحَوَّلُ عِلَاقَتُهُ بِنَفْسِهِ وَبِالْآخَرِينَ.

وَلِذَلِكَ يَكُونُ الْمِغْيَارُ الْحَقِيقِيُّ لِنَجَاحِ التَّجَرِبَةِ الرُّوحِيَّةِ لَيْسَ فِي مَقْدَارٍ مَا يَشْعُرُ بِهِ السَّالِكُ مِنْ أَحْوَالٍ، بَلْ فِي مَقْدَارٍ مَا يَتَحَوَّلُ بِهِ سُلُوكُهُ وَقِيَمَتُهُ وَعِلَاقَتُهُ بِالْآخَرِ. وَهَذَا يُمْكِنُ إِعَادَةُ قِرَاءَةِ الْإِخْلَاصِ بِوَصْفِهِ مَفْهُومًا لِتَحْرِيرِ الْفِعْلِ؛ فَالْفِعْلُ الَّذِي يَخْضَعُ لِطَلْبِ الْمَدْحِ وَالْمَكَانَةِ وَنَظَرِ النَّاسِ يَكُونُ - مِنْ مَنْظُورِ صُوفِيٍّ - فِعْلًا لَمْ يَتَحَرَّرْ بَعْدَ مِنْ سُلْطَةِ الْآخَرِ. وَقَدْ أَوَّلَى الْغَزَالِيُّ الرِّيَاءَ وَحُبَّ الْجَاهِ عِنَايَةً وَاسِعَةً فِي إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ؛ لِمَا يَتَضَمَّنَانِهِ مِنْ تَعَلُّقِ الدَّاتِ بِنَظَرِ الْآخَرِينَ وَتَقْدِيرِهِمْ. ويشير إلى أن الرياء هو طلب المنزلة في قلوب الناس. (الغزالي، د.ت، ص322).

وَهَذَا تَبْدُو الصَّلَاحُ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ وَالْحُرِّيَّةِ أَعَمَقَ مِمَّا يَبْدُو؛ فَالْإِخْلَاصُ يُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَاجَتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ إِلَى أَنْ يُرَى وَيُعْرَفَ وَيُمدَحَ. وَمِنْ هُنَا يَتَحَوَّلُ الْإِخْلَاصُ مِنْ مَفْهُومٍ تَعَبْدِيٍّ إِلَى مَفْهُومٍ ذِي قِيَمَةٍ فُلْسُوفِيَّةٍ؛ لِأَنَّهُ

يُعْبَرُ عَنْ اسْتِقْلَالِ الْقَصْدِ عَنْ هَيْمَنَةِ نَظَرِ الْآخِرِ. وَلَكِنَّ هَذَا الاسْتِقْلَالَ لَا يَعْنِي الْغَاءَ الْآخِرَ؛ فَالتَّحَرُّرُ مِنْ نَظَرِ الْآخِرِ شَيْءٌ، وَالتَّحَرُّرُ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ نَحْوَهُ شَيْءٌ آخَرُ.

حيث يتجلى العمق في الحرية مفهومها الصوفي: كلما تحرر الإنسان من الآخر بوصفه مصدرًا لقيمته، صار أقدر على اللقاء به بوصفه إنسانًا فالذات التي تحتاج إلى الآخر لإثبات ذاتها تدخل معه في علاقة مضطربة إذ تسعى إلى امتلاك اعترافه أو خوفه أو إعجابه. أما الذات التي تحررت من هذه الحاجة، فتستطيع أن ترى الآخر لذاته، لا للوظيفة التي يؤديها في تثبيت صورتها. (محمود، 1960، ص365). ومن هنا تنتقل الحرية إلى المحبة؛ لأن المحبة في معناها العميق تتطلب خروجًا من مركزية الأنأ. وقد أفرَد القشيري للمحبة بابًا ضمن مقامات التجربة الصوفية، كما حصر مفهوم المحبة بقوة في الفكر الصوفي؛ إذ تتجاوز المحبة مجرد الانفعال إلى تحول في علاقة الذات بمركزها وغايتها. (ظهير، 2005، ص265).

وإذا كان الهوى يجعل الذات تطلب الآخر من أجل نفسها، فإن المحبة تفتح إمكان أن تخرج الذات من ذاتيتها نحو ما يتجاوزها. ومن هنا تظهر الخدمة والإيتار والرحمة نتائج عملية للتحرر الباطني؛ فالإنسان الذي لم يعد محكومًا بحاجته إلى تضخيم ذاته يصير أقدر على أن يترك مكانًا للآخر.

وبهذا يكون التحرر من الأنأ شرطًا لولادة المسؤولية الأخلاقية. وهنا تتضح أهمية البقاء الذي تناوله المطلب السابق؛ فلو كان الفناء نهاية التجربة، لانتهى السالك إلى الانسحاب من العالم. أما البقاء فيعیده إلى العالم بوعي أخلاقي متجدد. ومن ثم، فإن البقاء يمكن قراءته بوصفه عودة الذات المحررة إلى الفعل. ولهذا يؤكد الجنيد في وصفه للتصوف بأنه: "استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني". (الجنيد، 2005، ص187). حيث تنتقل الحرية الصوفية من البعد السلبي إلى البعد الإيجابي؛ فهي لا تعود فقط تحررًا من الهوى، بل تصير فترة على فعل الخير. (ظهير، 2005، ص267). ويجعل الغزالي الغاية من تركية النفس ليس مجرد الوصول إلى حالة روحية، بل يرى أن ثمره التركيبية هي تغير الأخلاق. فإذا زال الكبر، حل التواضع، وإذا زال الحقد ظهر العفو (الغزالي، د.ت، ص343).

وهذا التحول جوهري؛ لأن الحرية التي تقف عند إزاله القيود لا تجيب عن السؤال: ماذا بعد زوال القيود؟ أما الحرية الصوفية فتتفرخ أن ما بعد التحرر هو التحقق بالقيمة. ومن هنا لا تكون الحرية غاية منفصلة عن الخير، بل قدرة الإنسان على أن يختار الخير من دون أن يكون أسيرًا لهواه أو خوفه أو حاجته إلى الاعتراف. وهنا يتضح الفرق بين حرية الاختيار وحرية التحقق؛ فالأولى تعني أن يكون للإنسان أكثر من خيار، أما الثانية فتعني أن يكون قادرًا على اختيار ما يحقق إنسانيته. ويعكس التصوف ضمناً حقيقة أن كثرة الخيارات لا تنتج بذاتها، إنساناً حراً؛ فقد تنسج الخيارات وتبقى الذات مستعبدة للشهوة والخوف والعادة.

وهذا ما يُعطي للتصوف قيمة في النقاش الفلسفي حول الحرية؛ لأنه يحول السؤال من كم خياراً يملك الإنسان إلى: أي إنسان هو الذي يختار؟ وهل تكونت ذاته على نحو يجعل اختياره تعبيراً عن إرادة حرة، أم أنه يعيد إنتاج أشكال التبعية في صورة اختيار؟

ومن هنا تتخذ الفضيلة مكاناً مركزياً؛ فالذات الحرة لا تكون ذاتاً فارغة من القيم، بل ذاتاً تشكلت فيها القدرة على الصدق والعدل والرحمة والإيتار وضبط النفس. وبهذا تلتقي الحرية بالأخلاق؛ فلا تكون الأخلاق قيداً خارجياً على الحرية، بل تصبح بنية داخلية تؤهل الذات لممارسة حريتها. وهنا تظهر قيمة التركيب مرة أخرى؛ فهي لا تخرج الإنسان من الحرية إلى الطاعة العمياء، بل تسعى إلى أن تجعل الخير اختياراً نابعا من ذات أعادت بناء نفسها. وبالتالي فإن الفاعلية الأخلاقية تمثل الاختيار النهائي للحرية الباطنية؛ فلا قيمة لحرية لا تجعل الإنسان أكثر عدلاً ورحمة وصدقاً وقدرة على احترام الآخر.

وهذا يقضي إلى نتيجة مركزية في هذا البحث:

إن الحرية الصوفية لا تبلغ كمالها بتحرير الذات من قيودها فحسب، بل حين تتحول الذات المحررة إلى ذات أخلاقية فاعلة. حيث تشكل حركة الحرية في التصوف في مسار متكامل: تحرر من الهوى، ثم تحرر من التعلق، ثم تجاوز لمركزية الأنأ، ثم عودة إلى العالم بفاعلية أخلاقية أعمق.

خلاصة المطلب الأول:

يتضح أن الحرية الباطنية في التجربة الصوفية لا تنتهي إلى انزعال الذات عن العالم، بل تمهد لعودتها إليه في صورة ذات أخلاقية أكثر تحرراً من الهوى وطلب الجاه ونظر الآخرين.

وَقَدْ أَظْهَرَ التَّحْلِيلُ أَنَّ الْإِخْلَاصَ يُمَكِّنُ فَهْمَهُ بِوَصْفِهِ تَحْرِيرًا لِلْقَصْدِ، وَأَنَّ الْمَحَبَّةَ تُمَثِّلُ خُرُوجًا مِنْ مَرَكِزِيَّةِ الْأَنَا، وَأَنَّ الْإِثَارَ وَالرَّحْمَةَ وَالْخِدْمَةَ تُمَثِّلُ صُورًا عَمَلِيَّةً لِتَحَوُّلِ الْحُرِّيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ إِلَى فَاعِلِيَّةِ أَخْلَاقِيَّةٍ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ التَّصَوُّفَ لَا يَفْتَرِخُ حُرِّيَّةً مُنْفَصِلَةً عَنِ الْقِيَمَةِ، بَلْ يَرِيبُ بَيْنَ تَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ وَتَهْذِيبِهَا؛ فَالْإِرَادَةُ الْحُرَّةُ لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ، بَلْ الَّتِي لَمْ تَعُدْ مُضْطَرَّةً إِلَى الْخُضُوعِ لِلْهَوَى وَالْخَوْفِ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْاعْتِرَافِ وَبِذَلِكَ تَصِيرُ الْفَاعِلِيَّةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ ثَمَرَةَ الْحُرِّيَّةِ الصُّوفِيَّةِ وَاخْتِيَارَ هَا الْعَمَلِيِّ.

المطلب الثاني: الحُرِّيَّةُ الصُّوفِيَّةُ وَمُقَاوَمَةُ الْاِغْتِرَابِ الْإِنْسَانِيِّ:

إِذَا كَانَتْ الْحُرِّيَّةُ فِي التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ تَبْدَأُ مِنْ تَحْرِيرِ الذَّاتِ مِنَ الْهَوَى وَالتَّعَلُّقِ وَمَرَكِزِيَّةِ الْأَنَا، فَإِنَّ هَذَا التَّحَرُّرَ يَكْتَسِبُ دَلَالَةً أَوْسَعَ حِينَ يُفْرَأُ فِي ضَوْءِ إِشْكَالِيَّةِ الْاِغْتِرَابِ الْإِنْسَانِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَفْقِدُ حُرِّيَّتَهُ فَقَطْ حِينَ يُكْرَهُ مِنْ خَارِجِهِ، بَلْ قَدْ يَفْقِدُهَا حِينَ يَبْتَعِدُ عَنْ ذَاتِهِ، وَيَتَعَرَّفُ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ خِلَالِ مَا يَمْلِكُهُ أَوْ مَا يَنْظُرُ بِهِ الْآخَرُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْاِغْتِرَابَ لَا يَكُونُ مَجَرَّدَ بُعْدٍ عَنِ الْمَكَانِ أَوِ الْجَمَاعَةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بُعْدًا عَنِ الذَّاتِ؛ أَيَّ أَنْ يَحْيَا الْإِنْسَانُ فِي حَيَاةٍ لَا تَتَّبِعُ مِنْ مَعْنَى يَتَعَرَّفُ بِهِ فِي أَعْمَاقِهِ، بَلْ مِنْ قِيَمٍ وَرَغَبَاتٍ وَمَعَايِيرٍ تُفَرِّضُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْهُ. وَهَذَا يَلْتَقِي سَوَالِ الْاِغْتِرَابِ مَعَ السُّؤَالِ الصُّوفِيِّ عَنِ مَنْ يَمْلِكُ الذَّاتَ فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَسْتَمِدُّ قِيَمَتَهُ مِنَ الْمَالِ أَوِ الْجَاهِ أَوِ الصُّورَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ قَدْ يَبْدُو مُسْتَقِلًّا، وَلَكِنْ مَعْنَى نَفْسِهِ مُعَلَّقٌ بِأَشْيَاءٍ خَارِجَةٍ عَنْهُ. وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْاِغْتِرَابَ عَنِ الذَّاتِ قَدْ يَتَّخِذُ صُورَةَ التَّعَلُّقِ؛ فَكُلَّمَا جَعَلَ الْإِنْسَانُ مَعْنَى ذَاتِهِ مَرْهُونًا بِمَا يَمْلِكُ، أَوْ بِمَا يَقَالُ عَنْهُ، أَوْ بِمَا يَحْقِيقُهُ مِنْ مَكَانَةٍ، صَارَ عُزْضَةً لِأَنْ يَفْقِدَ نَفْسَهُ مَعَ فَقْدِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَلِذَلِكَ يَصِفُ الْغَزَالِيُّ الزُّهْدَ بِأَنَّهُ: نَزْعُ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا مِنَ الْقَلْبِ. (الغزالي، د.ت، ص112). وَهَذَا يَنْجَلِي مَعْنَى التَّحَرُّرِ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْمَادَةِ وَسُلْطَانِهَا وَهَذَا تَطَهُّرُ قِيَمَةِ الزُّهْدِ فِي مَنْظُورِ فَلَسْفِي؛ فَهُوَ لَا يَعْنِي فَقْرَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْأَشْيَاءِ، بَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يُفْهَمَ عَلَى أَنَّهُ تَحْرِيرٌ لِهَوِيَّتِهِ مِنَ النَّمَاهِي مَعَ مَا يَمْلِكُ. وَقَدْ عَرَضَ الطُّوسِيُّ الزُّهْدَ ضَمْنَ الْمَقَامَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي السُّلُوكِ الصُّوفِيِّ، مُبَيِّنًا مَكَانَتَهُ فِي تَخَفُّفِ الْقَلْبِ مِنَ التَّعَلُّقِ. (الطوسي، 1960، ص235).

فَالْمَرْءُ قَدْ يَتْرَكَ السُّلْطَةَ وَلَكِنْ يَبْقَى حُبُّهَا فِي قَلْبِهِ. وَبِهَذَا، فَإِنَّ الزُّهْدَ يُمَكِّنُ قِرَاءَتَهُ بِوَصْفِهِ مُقَاوَمَةً لِلْاِغْتِرَابِ بِفِعْلِ الْاِمْتِلَاقِ؛ فَالذَّاتُ الَّتِي تُعَرَّفُ نَفْسَهَا بِمَا تَحْوِرُهُ تَصِيرُ مُهَدَّدَةً دَائِمًا بِفَقْدِ ذَاتِهَا مَعَ فَقْدِ مَا تَحْوِرُهُ. فَالزُّهْدُ فِي عَمَقِهِ يَنْطَوِي عَلَى مَعْنَى التَّحَرُّرِ مِنْ اسْتِعْبَادِ التَّعَلُّقِ فَهُوَ لَيْسَ تَرْكُ الشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَتْرَكَ التَّعَلُّقَ بِهِ؛ فَإِذَا زَالَ الشَّيْءُ لَمْ يَنْهَدَمْ قَلْبُهُ، وَإِذَا جَاءَهُ لَمْ يَسْتَعْبِدْهُ. (الطوسي، 1960، ص241).

كَمَا نَصَلَ إِلَى شَكْلِ آخَرَ مِنَ الْاِغْتِرَابِ، هُوَ الْاِغْتِرَابُ بِفِعْلِ نَظَرِ الْآخَرِ؛ فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَبْنِي صُورَةَ نَفْسِهِ عَلَى أَسَاسِ مَا يَتَوَقَّعُهُ الْآخَرُونَ مِنْهُ، وَمَا يُجِبُّونَ أَنْ يَرَوْهُ فِيهِ، حَتَّى يَصِيرَ نَظَرُهُمْ إِلَيْهِ أَقْوَى مِنْ نَظَرِهِ إِلَى نَفْسِهِ. وَقَدْ كَشَفَ الْغَزَالِيُّ فِي تَحْلِيلِهِ لِحُبِّ الْجَاهِ وَالرِّيَاءِ عَنْ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ؛ إِذْ بَيَّنَّ كَيْفَ يَتَعَلَّقُ الْإِنْسَانُ بِمَنْزِلَتِهِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِهَذَا التَّعَلُّقِ أَنْ يُعِيدَ تَوْجِيهَ فِعْلِهِ وَقَصْدِهِ. وَمِنْ هُنَا تَكْتَسِبُ الْمُرَاقَبَةُ وَالْإِخْلَاصُ دَلَالَةً تَحْرِيرِيَّةً؛ فَهَمَّا يَعْمَلَانِ عَلَى إِعَادَةِ الْفِعْلِ إِلَى مَصْدَرِهِ الدَّاخِلِيِّ، وَتَحْرِيرِهِ مِنْ سُلْطَةِ نَظَرِ الْآخَرِ وَطَلَبِ النَّقْدِ. وَهَذَا يَتَّبِعُ أَنَّ التَّحَرُّرَ الصُّوفِيَّ لَا يَعْنِي رَفْضَ الْآخَرِ، بَلْ رَفْضَ أَنْ يَكُونَ الْآخَرُ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ مَعْيَارَ قِيَمَةِ الذَّاتِ. وَبِذَلِكَ نَصَلَ إِلَى فَرْقٍ دَقِيقٍ بَيْنَ الْعِلَاقَةِ بِالْآخَرِ وَالْإِرْتِيَانِ لِلْآخَرِ؛ فَالْأَوَّلَى ضَرُورَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ وَأَخْلَاقِيَّةٌ، أَمَّا الثَّانِيَّةُ فَقَدْ تَحَوَّلَ الذَّاتُ إِلَى صُورَةٍ تَسْعَى دَائِمًا إِلَى إِرْضَاءِ مَا يُرَادُ مِنْهَا. وَهَذَا يَتَحَوَّلُ الْإِخْلَاصُ إِلَى اسْتِرْدَادٍ لِلْقَصْدِ، وَتَتَحَوَّلُ الْمَحَبَّةُ إِلَى اسْتِرْدَادٍ لِلْعِلَاقَةِ مِنْ مَنْطِقِ التَّمَلُّكِ وَالْاِغْتِرَابِ إِلَى مَنْطِقِ الْخُسُوفِ وَالْعَطَاءِ.

وَتَتَّبِعُ صِلَةُ الْاِغْتِرَابِ بِأَرْزَمَةِ الْمَعْنَى؛ فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَمْلِكُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً وَيَطْلُقُ فَاقِدًا لِلْسُّؤَالِ الَّذِي يَنْظُمُ حَيَاتَهُ: لِمَادًا أَحْيَا؟ وَلِمَادًا أُرْغَبُ فِيهَا أُرْغَبُ فِيهِ؟ وَهَذَا تَنْجَلِي التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ لَا بِوَصْفِهَا تَقْنِيَّةً لِلْهَرُوبِ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ بِوَصْفِهَا مَحَاوَلَةً لِإِعَادَةِ تَوْحِيدِ الْمَعْنَى دَاخِلَ الذَّاتِ. حَيْثُ يَكْتَسِبُ التَّوْحِيدُ بُعْدًا وَجُودِيًّا؛ فَهُوَ لَا يُوْجِدُ مَوْضُوعَ الْعِبَادَةِ فَحَسْبُ، بَلْ يُوْجِدُ وَجْهَةَ الْقَصْدِ وَيُنْهِي تَشَتُّتَ الْإِرَادَةِ بَيْنَ مَرَاكِرَ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَبِهَذَا، فَإِنَّ الْاِغْتِرَابَ يُمَكِّنُ أَنْ يُفْرَأَ صُوفِيًّا بِوَصْفِهِ تَشَتُّتًا فِي مَرَكِزِ الْقِيَمَةِ؛ فَالْإِنْسَانُ يَتَوَرَّعُ بَيْنَ مَا يُرِيدُهُ النَّاسُ مِنْهُ، وَمَا تُرِيدُهُ رَغْبَاتُهُ، وَمَا يَمْلِكُهُ الْخَوْفُ، وَمَا يَعِدُهُ بِهِ الْمَالُ وَالْجَاهُ. ذَلِكَ إِنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ تَسْعَى إِلَى جَمْعِ الذَّاتِ بَعْدَ تَشَتُّتِهَا. وَلِذَلِكَ يَكُونُ التَّحَرُّرُ مِنَ الْهَوَى لَيْسَ مَجَرَّدَ انْتِصَارٍ أَخْلَاقِيٍّ عَلَى رَغْبَةٍ بَلْ اسْتِرْدَادًا لَوْحِدَةِ الْإِرَادَةِ؛ وَيَكُونُ الزُّهْدُ اسْتِرْدَادًا لِلذَّاتِ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ وَالْإِخْلَاصُ اسْتِرْدَادًا لِلْقَصْدِ مِنْ نَظَرِ

الناس؛ ويتجلى هذا المعنى في تعريف الجنيد للإخلاص، ويعرفه بانه "سرّ بين الله تعالى وبين العبد، لا يعلمه ملكٌ فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله". (الجنيد، 213، 2005) والتوكل استرداداً للسكينة من قلق النتائج ويتجلى في تعريف الغزالي: "التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده". (الغزالي، د.ت، ص 324). حيث يحمل الطمأنينة والثقة في الله تعالى. وَهَذَا تَشَكُّلُ بَنِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ لِمُقَاوَمَةِ الاغْتِرَابِ فِي التَّصَوُّفِ:

- الرُّهُدُ يُقَاوَمُ الاغْتِرَابَ بِفِعْلِ الامْتِلَاكِ.
 - الإِخْلَاصُ يُقَاوَمُ الاغْتِرَابَ بِفِعْلِ نَظَرِ الْآخَرِ.
 - التَّوَكُّلُ يُقَاوَمُ الاغْتِرَابَ بِفِعْلِ الْفَلَقِ وَالتَّعَلُّقِ بِالنَّيْجَةِ.
 - التَّرَكِيَّةُ تُقَاوَمُ الاغْتِرَابَ بِفِعْلِ الْهَوَى وَالتَّابِعِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ.
 - التَّوْحِيدُ يُقَاوَمُ الاغْتِرَابَ بِفِعْلِ تَشَكُّتِ الْمَعْنَى وَالْإِرَادَةِ.
- وَبِهَذَا تَتَضَحُّ إِمْكَانِيَّةُ قِرَاءَةِ التَّصَوُّفِ بوصفه مشروعاً لاسترداد الذات؛ لا بمعنى العودة إلى ذات مغلقة، بل بمعنى إعادة بناء ذات تعرف ما تريد، ولماذا تريد، وما الذي يملك حق توجيه إرادتها.
- وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ أَنْ نَرَى فِي التَّصَوُّفِ مَا يُشَبِّهُ نَقْداً مُبَكِّراً لِلاغْتِرَابِ الْبَاطِنِيِّ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَسْتَخْدِمِ الصُّوفِيَّةُ الْمُصْطَلَحَ الْحَدِيثَ نَفْسَهُ. وَيَجِبُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّنَا لَا نُنْسِبُ إِلَى الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ نَظْرِيَّةَ حَدِيثَةٍ فِي الاغْتِرَابِ، وَلَكِنَّا نَسْتَخْدِمُ الْمَفْهُومَ كَأَدَاةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ لِقِرَاءَةِ بَنِيَّةٍ جُودَةٍ فِي النُّصُوصِ: بَنِيَّةُ الْإِنْفِصَالِ عَنِ الدَّاتِ بِفِعْلِ الْهَوَى وَالتَّعَلُّقِ وَنَظَرِ الْآخَرِ. وَهُنَا تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ الْمُقَارَنَةِ مَعَ بَعْضِ النُّصُورَاتِ الْحَدِيثَةِ؛ فَقَدْ نَبَّهَ إِيْرِيْكَ فُرُومَ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ نَمَطِ إِيْرِيْكَ الْاِمْتِلَاكِ وَنَمَطِ الْوُجُودِ، وَإِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَى كَائِنٍ يَعْرِفُ نَفْسَهُ بِمَا يَمْلِكُ. (فروم، 2017، ص 167). ويشير إريك فروم إلى قيمة التحرر في كتابه "أن تملك أو أن تكون" وهل يعرف الإنسان بما يملك، أم بما يعيش ويكون ويبدع. فالمشكلة في رأي فروم ليست في يمتلك الإنسان وإنما المشكلة في ارتهان الإنسان واستلابه.

عندما يتم ربط قيمته الإنسانية بما يمتلك. فالتحرر لا يعني أن تتخلى عن كل ممتلكاتك وتعيش بلا شيء بل يعني أن تتوقف عن بناء هويتك على ما تملك. (فروم، 2017، ص 169). وهنا يصبح التحرر من منظور فروم: هو أستطيع أن أمتلك الشيء دون أن أكون مملوكاً له. (فروم، 2017، ص 172). ولذلك يؤكد فروم على موقفه بقوله: "لا تجعل هويتك قائمة على الامتلاك". (فروم، 2017، ص 173). وَهَذَا يَفْتَحُ مَجَالاً مُقَارَئاً مُهِمّاً مَعَ الرُّهُدِ الصُّوفِيِّ؛ لَكِنْ مَعَ ضَرُورَةِ الْحِفَاطِ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَرْجِعِيَّتَيْنِ: فَفُرُومُ يَنْطَلِقُ مِنْ نَقْدِ إِنْسَانِي لِلْمُجْتَمَعِ الْحَدِيثِ، بَيْنَمَا يَنْطَلِقُ التَّصَوُّفُ مِنْ بَنِيَّةٍ تَوْحِيدِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ.

وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنَ الْمُقَارَنَةِ دُونَ أَنْ نَقَعَ فِي التَّمَاهِي بَيْنَ الْمَفَاهِيمِ. وَكَذَلِكَ يُمَكِّنُ الْإِفَادَةَ مِنْ تَحْلِيلَاتِ تَشَكُّلِ الدَّاتِ وَالْعَلَاقَةِ بِالْمَعْنَى فِي الْفَلْسَفَةِ الْحَدِيثَةِ، خُصُوصاً عِنْدَ تَشَارُلِزِ تَايلُور، الَّذِي جَعَلَ الْهُوِيَّةَ مُرْتَبِطَةً بِالْأَفَقِ الْقِيَمِيِّ الَّذِي يُعْرِفُ الْإِنْسَانَ مِنْ خِلَالِهِ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِالتَّقْدِيرِ وَالْمَعْنَى. (تايلور، 2014، ص 432). حيث يرفض تايلور ان تتحدد قيمة الإنسان في ما يمتلك.

وَهَذَا يَأْخُذُنَا إِلَى فَهْمِ كَيْفِ يَعْمَلُ التَّصَوُّفُ عَلَى إِعَادَةِ الْقِيَمَةِ دَاخِلَ الدَّاتِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُشْتَتَّةً بَيْنَ مُشْتَتَّةٍ بَيْنَ الْهَوَى وَالْاِغْتِرَابِ وَالْاِمْتِلَاكِ. فالتحرر الحقيقي للإنسان هو في تحرر الإنسان من قيد التعلق، ومن سلطان ربط قيمته الإنسانية بما يمتلك، ومن هنا كانت المجاهدة الصوفية تحمل معنى التحرر من استعباد التعلق بالمادة لتصبح الذات الإنسانية منفتحة على مقامات الارتقاء.

ذَلِكَ إِنَّ مُقَاوَمَةَ الاغْتِرَابِ فِي التَّصَوُّفِ لَا تَعْنِي الْعُودَةَ إِلَى دَاتٍ مُنْغَلِقَةٍ، بَلْ إِلَى دَاتٍ أَكْثَرَ اِتِّصَالاً بِمَعْنَاهَا، وَأَقْلَ ارْتِهَاناً لِمَا يُمْلِكُهُ الْخَارِجُ عَلَيْهَا. وَبِالتَّالِي يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ تُقَاوَمُ الاغْتِرَابَ فِي أَرْبَعَةِ مُسْتَوَيَاتٍ:

1. اغْتِرَابُ الدَّاتِ عَنْ إِرَادَتِهَا بِفِعْلِ الْهَوَى.
2. اغْتِرَابُ الدَّاتِ عَنْ قِيَمَتِهَا بِفِعْلِ نَظَرِ الْآخَرِ.
3. اغْتِرَابُ الدَّاتِ عَنْ مَعْنَاهَا بِفِعْلِ الْاِمْتِلَاكِ وَالتَّشَكُّتِ.
4. اغْتِرَابُ الدَّاتِ عَنِ الْعَالَمِ حِينَ تَتَحَوَّلُ الْعَلَاقَةُ بِهِ إِلَى سَيِّطَرَةٍ وَاسْتِهْلَاكِ فَقَطْ.

وَمِنْ هُنَا تَكُونُ الْحُرِّيَّةُ الصُّوفِيَّةُ فِي أَعْمَقِ مَعَانِيهَا عَمَلِيَّةً اسْتِرْدَادًا: اسْتِرْدَادُ الْإِرَادَةِ، وَالْمَعْنَى، وَالْقِيَمَةِ، وَالْعَلَاقَةِ بِالْعَالَمِ. وَهَذَا هُوَ مَا يَجْعَلُ الْمَفْهُومَ الصُّوفِيَّ لِلتَّحَرُّرِ قَادِرًا عَلَى فَتْحِ جَوَارِ مَعَ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ؛ لِأَنَّ أَرْزَمَتَهُ لَا تَتَمَثَّلُ دَائِمًا فِي نَفْصِ الْخِيَارَاتِ، بَلْ قَدْ تَتَمَثَّلُ فِي كَثْرَةِ الْخِيَارَاتِ مَعَ فَقْدِ الْمَعْنَى الَّذِي يُرْتَبِّهَا. وبذلك يمكن القول ان التَّصَوُّفَ لَا يَفْتَحُ لِلْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ أَبْوَابًا لِلْهُرُوبِ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ يَقْدَمُ - فِي أَفْقِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ - نَقْدًا لِأَشْكَالِ الْحَيَاةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَمْلِكُ أَكْثَرَ وَيَكُونُ أَقَلَّ.

المطلب الثالث: الحرية الصوفية وأزمة الإنسان المعاصر: نحو تصور إنساني للتحرر:

إِذَا كَانَتْ الْحُرِّيَّةُ فِي التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ قَدْ تَكَوَّنَتْ عَنِ مَسَارٍ بَدَأَ بِتَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنَ الْهَوَى، وَبِمَرُ بِتَخْفِيفِ سُلْطَةِ التَّعَلُّقِ وَمَرْكَزِيَّةِ الْأَنَا، ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَى فَاعِلِيَّةِ أَخْلَاقِيَّةٍ أَكْثَرَ انْفِتَاحًا عَلَى الْآخَرِ وَالْعَالَمِ، فَإِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَفْرُضُ نَفْسَهُ فِي خِتَامِ هَذَا الْمَسَارِ هُوَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ هَذَا التَّصَوُّرُ أَنْ يَقْدَمَ شَيْئًا لِلْإِنْسَانِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ؟ والسؤال الآخر الذي يمكن ان نطرحه هو: أي دور للتصوف بأبعاده الروحية والإنسانية في انسنة حضارة المادة؟ وإعادة الاعتبار الى كل ما هو إنساني؟

إِنَّ أَرْزَمَةَ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ لَا تَكْمُنُ دَائِمًا فِي غِيَابِ الْحُرِّيَّةِ بِمَعْنَاهَا الْقَانُونِي أَوِ السِّيَاسِي، بَلْ قَدْ تَكْمُنُ فِي أَنَّهُ يَمْلِكُ مَجَالًا وَاسِعًا مِنَ الْاِخْتِيَارِ، فِي جِهِنِ تَظَلُّ دَائِمًا مُحَاصَرَةً بِقُوَى أَشَدَّ خَفَاءً: الْاِسْتِهْلَاكُ، وَالرَّغْبَةُ غَيْرُ الْمُنتَهِيَّةِ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفَقْدِ، وَالْحَاجَةُ إِلَى الْاِعْتِرَافِ، وَقَلْقُ الْإِنْجَازِ، وَتَشَنُّتُ الْمَعْنَى. وسيطرة قيم المادة. وَمِنْ هُنَا تَكْتَسِبُ الْحُرِّيَّةُ الصُّوفِيَّةُ قِيَمَةً نَفْثِيَّةً؛ لِأَنَّهَا تُعِيدُ طَرَحَ السُّؤَالِ الَّذِي قَدْ تَتَجَاهَلُهُ ثَقَافَةُ كَثْرَةِ الْخِيَارَاتِ هَلْ كُلُّ مَا اسْتَطِيعَ أَنْ اِخْتَارَهُ يَجْعَلُنِي أَكْثَرَ حُرِّيَّةً؟

فَقَدْ تَتَسَبَّحُ الْاِخْتِيَارَاتُ وَتَضِيقُ الدَّائِثُ، وَقَدْ يَزْدَادُ الْاِمْتِلَاكُ وَيَزْدَادُ الْقَلْقُ، وَقَدْ يَتَكَثَّرُ الْحُضُورُ الْاجْتِمَاعِيُّ وَيَتَعَمَّقُ الشُّعُورُ بِالْعُزْلَةِ، وَقَدْ يَمْتَلِكُ الْإِنْسَانُ قُدْرَةً كَبِيرَةً عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَبْقَى غَيْرَ واثِقٍ مِمَّا إِذَا كَانَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ هُوَ دَائِمًا حَقًّا أَمْ صُورَةً صَنَعَهَا لِيَرَاهَا الْآخَرُونَ.

وَهُنَا يَتَحَوَّلُ سُّؤَالُ الْحُرِّيَّةِ مِنْ مَجَالِ الْإِمْكَانِ إِلَى مَجَالِ الْمَعْنَى؛ فَلَيْسَ السُّؤَالُ فَقَطْ مَاذَا اسْتَطِيعَ أَنْ أَفْعَلَ؟ بَلْ مَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ أَفْعَلَهُ؟ وَمَا الَّذِي يَجْعَلُ اِخْتِيَارِي مُعْبَرًا عَنْ دَاتٍ حُرَّةٍ لَا عَنْ دَاتٍ مُسْتَهْلَكَةٍ بِالرَّغْبَةِ وَالْخَوْفِ؟

وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ قِرَاءَةُ الزُّهْدِ الصُّوفِي قِرَاءَةً مُعَاصِرَةً لَا تَقُومُ عَلَى رَفْضِ الْمَادَّةِ، بَلْ عَلَى نَقْدِ تَحَوُّلِ الْاِمْتِلَاكِ إِلَى مِغْيَارٍ لِقِيَمَةِ الْإِنْسَانِ. وَقَدْ بَيَّنَّ الطُّوسِيُّ مَكَانَةَ الزُّهْدِ فِي السُّلُوكِ الصُّوفِيِّ، بِوَصْفِهِ تَحَقُّقًا مِنْ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. (الطوسي، 1960، ص245). حيث يحمل الزهد في عمقه معاني التحرر من عبودية النفس والهوى والخوف والطمع والتعلق بنظر الناس، وصولاً إلى العبودية لله وحده. فكلما تحرر الإنسان من عبودية التعلق كلما تحقق بالتحرر الحقيقي. وكلما تعلق الإنسان بالسلطة أو المادة ليشعر بقيمته أو بالأمان، لم يزد إلا عبودية. ولذلك يؤكد الجنيد على حقيقة أن التصوف هو: أن تكون مع الله بلا علاقة. (الجنيد، 89، 2005). أي متجرداً من أي تعلق بالموجودات. وهو ما يشير اليه الحلاج في التحرر من العبودية بالتخلي، فلا حرية الا بمحو التعلق بالذات، والتحرر من اهواء النفس. ولذلك صرح الحلاج بقيمة التحرر في قوله: "اقتلوني يا ثقاتي، ان في قتلي حياتي، ومماتي في حياتي، وحياتي في مماتي." (الحلاج، 2002، ص109)

وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنْ يَتَخَلَّى الْإِنْسَانُ الْمُعَاصِرُ عَنِ الْعَمَلِ وَالْإِنْتِاجِ وَالتَّمَلُّكِ، بَلْ أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنْ فِكْرَةٍ أَنَّ قِيَمَتَهُ تَزْدَادُ بِزِيَادَةِ مَا يَمْلِكُ، وَأَنَّ فَقْدَ الشَّيْءِ يَعْنِي فَقْدَ الدَّائِثِ. وَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ الزُّهْدَ لَا يَعْمَلُ عَلَى تَقْلِيلِ الْحَيَاةِ، بَلْ عَلَى تَقْلِيلِ مَا يَسْتَعْبِدُ الْحَيَاةَ.

وَبِهَذَا الْمَعْنَى، يُمَكِّنُ أَنْ يَقْدَمَ التَّصَوُّفُ نَقْدًا لثقافة الاستهلاك الذي لَا يَشْبَعُ؛ فَالرَّغْبَةُ الَّتِي لَا تُهْدَبُ لَا تَصِلُ إِلَى الْاِكْتِفَاءِ، بَلْ تُعِيدُ اِنتَاجَ نَفْسِهَا فِي صُورٍ جَدِيدَةٍ، فَيَتَحَوَّلُ الْإِنْسَانُ مِنْ مُسْتَحْدِمٍ لِلْأَشْيَاءِ إِلَى إِنْسَانٍ تَسْتَخْدِمُهُ الْأَشْيَاءُ لِإِعَادَةِ اِنتَاجِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا.

وَمِنْ هُنَا تَظْهَرُ قِيَمَةُ التَّرَكِّيَّةِ؛ فَهِيَ لَا تَعْنِي مُحَارَبَةَ الرَّغْبَةِ، بَلْ تَعَلَّمَ مَا يَكْفِي وَمَا يَسْتَحِقُّ وَفِي هَذَا تَكْمُنُ صُورَةٌ مِنْ صُورِ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي لَا تُقَاسُ بِكَثْرَةِ مَا يَطْلُبُهُ الْإِنْسَانُ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَقَلَّ اِرْتِهَانًا لِمَا يَطْلُبُ وَيَتَصَلَّ بِذَلِكَ مَا عَالَجَهُ الْعَزَالِيُّ فِي عُبُودِيَّةِ الشَّهْوَةِ وَحُبِّ الْجَاهِ؛ إِذْ جَعَلَ كَمَالَ الْحُرِّيَّةِ مُرْتَبِطًا بِالْخَلَاصِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ، وَنَبَهَهُ إِلَى خَطَرِ جَعْلِ الْمَالِ وَالْجَاهِ مِقيَاسَيْنِ لِلْكَمَالِ

الإنساني. (الغزالي، د.ت، ص321). ولا يقصد الصوفية ان يقطع الإنسان علاقته بالعالم، لكن ان يقطع الإنسان التعلق الذي يجعله مستعبدا لأهوائه ورغباته.

وَهَذَا التَّحْلِيلُ يَكْتَسِبُ رَاهِنِيَّةً وَاضِحَةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُعَاَصِرَ قَدْ يَصِيرُ أَكْثَرَ تَعَلُّقًا بِالصُّورَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِذَاتِهِ، حَتَّى يَكُونَ مَا يَظْهَرُ بِهِ أَمَامَ الْآخَرِينَ أَهَمُّ مِنْ حَقِيقَةِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَمِنْ هُنَا يَشِيرُ جَان بَوْدِرْيَارَ إِلَى اسْتِلَابِ الْإِنْسَانِ فِي قَوْلِهِ: "نحن لا نستهلك الأشياء، بل العلامات. (بودريار، 1995، ص279). فحين يعمل الإنسان على اقتناء الأشياء المادية، ويحرص على ذلك لا لوظيفتها وإنما إلى ما يشعر به من نجاح أو مكانة أو تميز أو ارضاء لنظرة الآخر، انما يفقد كينونته وحرية ويصبح مستعبدا مستلبا. لان الإنسان يصبح متعلقا بالهوية التي يمنحه إياها الشيء. ويرفض هيدغر ايضا هذا الاستلاب عندما يصبح الإنسان جزءا من الاستهلاك فيصبح الإنسان شيئا يقيس نفسه كما يقيس الأشياء. (هيدجر، 2023، ص345).

وَمِنْ هُنَا يَتَحَوَّلُ الرَّبَاءُ مِنْ مَفْهُومٍ أَخْلَاقِيٍّ تَقْلِيدِيٍّ إِلَى مَفْهُومٍ ذِي قُوَّةٍ تَقْدِيرِيَّةٍ؛ إِذْ يَكْشِفُ عَنْ حَالَةٍ تَصِيرُ فِيهَا الدَّاتُ مُوجَّهَةً بِمَا تَظُنُّ أَنَّهَا سَيَجْلِبُ لَهَا الْاعْتِرَافُ وَالْاِسْتِحْسَانُ. وَبِالتَّالِي فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ يَتَحَوَّلُ إِلَى حُرِّيَّةٍ مِنْ سُلْطَةِ الصُّورَةِ؛ أَي: مِنْ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى أَنْ يَكُونَ كَمَا يُرِيدُ الْآخَرُونَ أَنْ يَرَوْهُ. وَلِذَلِكَ يُؤَكِّدُ بَوْدِرْيَارَ عَلَى رَفْضِ الْاسْتِلَابِ فِي قَوْلِهِ: "لا تجعل الآخرين يصنعون هويتك. (بودريار، 1995، ص281). كما يرفض سارتر ان نضل اسرى نظرة الآخرين إلينا. ففي هذه الحالة، لا يعيش الإنسان حياته، بل يعيش الصورة التي يريد أن يراها الآخرون عنه. (سارتر، 1966، ص289). فالتحرر هنا يعني أن يكون الإنسان سيد نفسه واختياراته وأن لا يبقى مرتتها لنظرة الآخرين أو التعلق بالأشياء المادية لأنها لا تمثل القيمة الحقيقية للإنسان. وَهُنَا يَكْمُنُ وَجْهُ آخَرٌ مِنْ وَجْهِ أَرْمَةِ الْحُرِّيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ: أَنْ تَكُونَ الدَّاتُ مُمْتَلِكَةً بِالتَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِهَا، وَلَكِنَّهَا غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى السُّكُونِ مَعَ نَفْسِهَا دُونَ جُمْهُورٍ يَرَاهَا.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، يُمَكِّنُ أَنْ تُقْرَأَ الْخُلُوعُ وَالصَّمْتُ وَالْمُرَاقَبَةُ فِي النَّصُوفِ لَا عَلَى أَنَّهَا هُرُوبٌ مِنَ الْحَيَاةِ، بَلْ كَمَسَاحَاتٍ يَسْتَعِيدُ فِيهَا الْإِنْسَانُ صِلَتَهُ بِذَاتِهِ بَعِيدًا عَنْ صَحِيحِ التَّوَقُّعَاتِ وَالتَّقْيِيمِ الْمُسْتَمِرِّ. وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنْ يَنْسَجِبَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمُجْتَمَعِ، بَلْ أَنْ يَكُونَ لَهُ دَاخِلٌ لَا يَمْلِكُهُ الْخَارِجُ كُلِّيًّا. وَبِذَلِكَ تُصْبِحُ الْحُرِّيَّةُ الْبَاطِنِيَّةُ قُدْرَةً عَلَى حِمَايَةِ مَسَافَةِ تَقْدِيرِيَّةٍ بَيْنَ الدَّاتِ وَمَا يُرَادُ مِنْهَا.

وَيَتَّصِلُ بِذَلِكَ أَيْضًا قَلْبُ النَّتِيجَةِ؛ فَالْإِنْسَانُ الْمُعَاَصِرُ كَثِيرًا مَا يَعْرِفُ دَاتَهُ مِنْ خِلَالِ مَا يُنْجِزُهُ، فَيَتَحَوَّلُ الْقَتْلُ مِنْ تَجْرِبَةٍ فِي الْحَيَاةِ إِلَى حُكْمٍ عَلَى قِيَمَةِ الدَّاتِ. وَهُنَا تَظْهَرُ قِيَمَةُ التَّوَكُّلِ؛ فَهُوَ لَا يُعْطِي الْإِنْسَانَ مِنَ الْفِعْلِ، بَلْ يُحَرِّرُهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ نَتِيجَةَ الْفِعْلِ مَقْيَاسًا نَهَائِيًّا لِقِيَمَتِهِ. وَقَدْ عَرَضَ الطُّوسِي لِلتَّوَكُّلِ وَالرِّضَا ضِمْنَ الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُعِيدُ تَشْكِيلَ عِلَاقَةِ السَّالِكِ بِالْأَسْبَابِ وَالنَّاتِجِ. فَيَعْرِفُ الرِّضَا بَانَهُ: سَكُونُ الْقَلْبِ تَحْتَ جَرِيَانِ الْإِحْكَامِ. (الطوسي، 1960، ص289). وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ قِرَاءَةُ التَّوَكُّلِ بِوَصْفِهِ تَحْرِيرًا لِلْفَاعِلِيَّةِ مِنْ خَوْفِ الْقَتْلِ الْمُطْلَقِ.

وَفِي الْمُقَابِلِ، يُمَكِّنُ قِرَاءَةُ الرِّضَا عَلَى أَنَّهَا تَحْرِيرٌ لِلدَّاتِ مِنَ الْارْتِهَانِ لِلْمَاضِي؛ فَالدَّاتُ الَّتِي لَا تَقْدِرُ عَلَى قَبُولِ مَا لَا يُمَكِّنُ تَغْيِيرَهُ تَبْقَى مَشْدُودَةً إِلَى مَا انْقَضَى وَتَقْدُرُ قُدْرَتَهَا عَلَى الْحُضُورِ فِي مَا هُوَ مُمَكِّنٌ. وَهُنَا تَظْهَرُ الْحُرِّيَّةُ مِنَ الزَّمَنِ النَّفْسِيِّ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهَا: أَنْ يَتَحَرَّرَ الْإِنْسَانُ مِنْ اسْتِبْدَادِ النَّدَمِ عَلَى مَا لَا يُرَدُّ، وَمِنْ قَلْبِ مَا لَمْ يَأْتْ بَعْدُ، حَتَّى يَسْتَعِيدَ قُدْرَتَهُ عَلَى الْحُضُورِ فِي الْفِعْلِ الرَّاهِنِ.

وَبِذَلِكَ يَتَّصِلُ النَّصُوفُ بِمَسْأَلَةِ الْحُضُورِ؛ فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَتَوَرَّعُ دَائِمًا بَيْنَ نَدَمِ الْمَاضِي وَخَوْفِ الْمُسْتَقْبَلِ يَفْقَدُ جُزْءًا مِنْ حُرِّيَّتِهِ فِي الْحَاضِرِ. وَالتَّجْرِبَةُ الصُّوفِيَّةُ، فِي بَعْضِ أَعْمَقِ مَقَاصِدِهَا، تُعِيدُ الْإِنْسَانَ إِلَى حُضُورِ الْقَلْبِ؛ أَي: إِلَى أَنْ يَكُونَ فِي الْفِعْلِ الَّذِي يَفْعَلُهُ، وَفِي الْمَعْنَى الَّذِي يَعِيشُهُ، بَدَلًا أَنْ يَكُونَ مُبَدَّدًا بَيْنَ مَا قَدْ وَمَا يَخْشَى أَنْ يَفْقَدَهُ.

يَتَّصِحُّ مِنْ خِلَالِ مَطَالِبِ هَذَا الْمَبْحَثِ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدِّ التَّحَرُّرِ الْبَاطِنِيِّ لِلدَّاتِ، بَلْ تَمْتَدُّ إِلَى بِنَاءِ فَاعِلِيَّةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ تَتَعَكَّسُ عَلَى عِلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِالْآخَرِ وَبِالْعَالَمِ. فَالْإِخْلَاصُ يُحَرِّرُ الْقَسْدَ مِنْ سُلْطَةِ نَظَرِ الْآخَرِ، وَالْمَحَبَّةُ تُخْرِجُ الدَّاتَ مِنْ مَرْكَزِيَّةِ الْأَنَا، وَالْإِيثَارُ وَالرَّحْمَةُ وَالْخِدْمَةُ تُحَوِّلُ التَّحَرُّرَ الْبَاطِنِيَّ إِلَى فِعْلِ أَخْلَاقِيٍّ مُتَعَدٍّ.

كَمَا كَشَفَ التَّحْلِيلُ أَنَّ النَّصُوفَ يَمْتَلِكُ إِمْكَانًا لِقِرَاءَةِ أَشْكَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْاِغْتِرَابِ الْإِنْسَانِيِّ؛ فَالزَّهْدُ يُمَكِّنُ أَنْ يُفْرَأَ بِوَصْفِهِ تَحَرُّرًا مِنْ اِغْتِرَابِ الْاِمْتِلَاقِ، وَالْإِخْلَاصُ بِوَصْفِهِ تَحَرُّرًا مِنْ اِغْتِرَابِ الْاِعْتِرَافِ وَالتَّوَكُّلِ

بوصفه تحرراً من استبداد النتيجة، والتركية بوصفها تحرراً من تبعية الهوى، والتوحيد بوصفه استرداداً لوحدة المعنى والقصد.

وفي سياق الإنسان المعاصر، تظهر الحرية الصوفية قادرة على نقد لنقافة الاستهلاك وتصخم الأنا وقلق الإنجاز والحاجة المستمرة إلى الاعتراف غير أن هذا النقد لا يعني أن تحل الحرية الباطنية محل الحرية الاجتماعية والسياسية، بل أن تتكامل معها.

ومن ثم، فإن المبحث الثالث ينتهي إلى أن التحرر الإنساني الأكمل يتحقق حين يجمع الإنسان بين حرية داخلية تحرره من الهوى والخوف والتعلق، وحرية خارجية تحميه من القهر والاستبداد، ومسؤولية أخلاقية توجه إرادته نحو الخير والمعنى.

خلاصة المبحث الثالث:

يتضح أن الحرية الصوفية تمتلك إمكاناً تحليلياً لمقاومة أشكال متعدّدة من الاغتراب؛ فالشغل بالأشياء يعرب الذات عن قيمتها، والتعلق بنظر الآخر يعربها عن قصدها، والهوى يعربها عن إرادتها، وتشتت الرغبات يعربها عن معناها.

وقد ظهر أن الزهد والإخلاص والتوكل والتركية والتوحيد يمكن قراءتها بوصفها مسارات لاسترداد الذات من هذه الصور المتعدّدة للاغتراب. ومن هنا لا تعود الحرية الصوفية مجرد تحرر من القيد، بل تصير تحرراً من الحياة التي تجعل الإنسان غريباً عن نفسه.

وبذلك تتضح الإضافة الفلسفية للمبحث: فالنصوف لا يقرأ هنا كتجربة فردية فقط بل كإمكان لبناء نقد لأشكال الاغتراب التي تفقد الإنسان إرادته ومعناه وعلاقته الأصلية بذاته والعالم.

كما يتضح من خلال مطالب هذا المبحث أن الحرية الصوفية لا تقف عند حد التحرر الباطني للذات، بل تمتد إلى بناء فاعلية أخلاقية تنعكس على علاقة الإنسان بالآخر وبالعالم. فالإخلاص يحرر القصد من سلطة نظر الآخر، والمحبة تخرج الذات من مركزية الأنا، والإيثار والرحمة والخدمة تحول التحرر الباطني إلى فعل أخلاقي متعد.

كما كشف التحليل أن النصوف يمتلك إمكاناً لقراءة أشكال متعدّدة من الاغتراب الإنساني؛ فالزهد يمكن أن يقرأ بوصفه تحرراً من اغتراب الامتلاك، والإخلاص بوصفه تحرراً من اغتراب الاعتراف، والتوكل بوصفه تحرراً من استبداد النتيجة، والتركية بوصفها تحرراً من تبعية الهوى، والتوحيد بوصفه استرداداً لوحدة المعنى والقصد. وفي سياق الإنسان المعاصر، تظهر الحرية الصوفية قادرة على تقديم نقد لنقافة الاستهلاك وتصخم الأنا وقلق الإنجاز والحاجة المستمرة إلى الاعتراف غير أن هذا النقد لا يعني أن تحل الحرية الباطنية محل الحرية الاجتماعية والسياسية، بل أن تتكامل معها.

ومن ثم، فإن المبحث الثالث ينتهي إلى أن التحرر الإنساني الأكمل يتحقق حين يجمع الإنسان بين حرية داخلية تحرره من الهوى والخوف والتعلق، وحرية خارجية تحميه من القهر والاستبداد، ومسؤولية أخلاقية توجه إرادته نحو الخير والمعنى.

خاتمة البحث:

انطلق هذا البحث من إشكالية فلسفية تدور في ظاهرها مفارقة، وهي كيف يمكن للعبودية، وهي في ظاهر المفهوم نقيض الحرية، أن تتحول في الفكر الصوفي إلى شرط لتحرير الذات وتحقيق الحرية الإنسانية؟ وقد أظهر التحليل أن الإجابة عن هذه الإشكالية تتطلب إعادة فهم الحرية ذاتها؛ فالحرية في النصوف لا تقاس بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يفعله، بل بمقدار ما يستطيع أن يتحرر من القوى التي توجهه من داخله وهو يظن أنه حر.

ومن هنا بدت الحرية الصوفية أقرب إلى حرية الذات منها إلى مجرد حرية الفعل؛ فقد يملك الإنسان فرصاً كثيرة للاختيار، ومع ذلك يظل أسيراً لشهوته وخوفه وطمعه وتعلقه وحاجته إلى نظر الآخرين.

وقد كشف البحث أن مفهوم العبودية يحمل في النصوف معنى تحريرياً؛ فهو لا يعني إلغاء الإرادة، بل تحريرها من تعدد مراكز الخضوع. ومن هنا تصير العبودية لله تحرراً من عبودية الهوى والمال والجاه ونظر الناس والخوف منهم.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، تَحَوَّلَ سُؤَالُ الْحُرِّيَّةِ مِنْ سُؤَالٍ عَنِ خُودِ الْفِعْلِ إِلَى سُؤَالٍ عَنِ بِنْيَةِ الدَّاتِ الَّتِي تَفْعَلُ؛ فَالْمَسْأَلَةُ لَمْ تَعُدْ هَلْ يَخْتَارُ الْإِنْسَانُ؟ بَلْ: مَنْ الَّذِي يَخْتَارُ فِيهِ؟ أَهُوَ وَعِي حُرٌّ وَقَصْدٌ مُتَرَنَّ، أَمْ هُوَ يَنْسَنُرُ فِي صُورَةِ إِرَادَةٍ؟

وَمِنْ هُنَا أَظْهَرَ الْبَحْثُ أَنَّ الْمَجَاهِدَةَ وَالتَّرَكِيَّةَ ثَمَتِلَانِ صُلْبَ مَشْرُوعِ تَحْرِيرِ الدَّاتِ؛ فَهُمَا لَا تَقُومَانِ عَلَى قَمْعِ الْإِنْسَانِ، بَلْ عَلَى إِعَادَةِ تَرْتِيبِ قُوَاهُ الدَّاخِلِيَّةِ وَتَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنْ سُلْطَةِ الدَّافِعِ. وَقَدْ أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى قِرَاءَةِ الزُّهْدِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالرِّضَا بِوَصْفِهَا مُمَارَسَاتٍ تَحَرُّرِيَّةٍ؛ فَالزُّهْدُ يُحَرِّرُ الدَّاتَ مِنْ سُلْطَةِ الْاِمْتِلَاقِ، وَالْمُرَاقَبَةُ تَكْشِفُ مَصَادِرَ الْقَيْدِ الدَّاخِلِيِّ، وَالْمُحَاسَبَةُ تُمَكِّنُ الدَّاتَ مِنْ مُرَاجَعَةِ دَوَافِعِهَا، وَالتَّوَكُّلُ يُحَرِّرُهَا مِنْ اسْتِبْدَادِ النَّتِيجَةِ، وَالرِّضَا يُحَرِّرُهَا مِنَ الْارْتِهَانِ لِمَا لَا يُمَكِّنُ تَغْيِيرَهُ. ثُمَّ بَلَغَ مَسَارُ التَّحَرُّرِ أَعْمَقَ مَرَاثِلِهِ فِي مَفْهُومِي الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ؛ إِذْ أَظْهَرَ التَّحْلِيلُ أَنَّ الْفَنَاءَ لَا يَعْنِي إِعْدَامَ الدَّاتِ، بَلْ تَفْكِيكَ مَرْكَزِيَّةِ الْاَنَا وَاسْتِبْدَادِهَا، فِي حِينٍ يُمَثِّلُ الْبَقَاءَ عَوْدَةَ الدَّاتِ إِلَى الْعَالَمِ بَعْدَ إِعَادَةِ بِنَائِهَا رُوحِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا. وَبِذَلِكَ تَكُونُ مَفْهُومُ تَحْرِيرِ الدَّاتِ فِي الْبَحْثِ عَلَى نَحْوِ تَدْرِيجِيٍّ: تَحَرُّرٌ مِنَ التَّعَلُّقِ، ثُمَّ تَحَرُّرٌ مِنَ الْهَوَى، ثُمَّ تَحَرُّرٌ مِنْ مَرْكَزِيَّةِ الْاَنَا، ثُمَّ عَوْدَةُ إِلَى الْعَالَمِ فِي صُورَةِ دَاتٍ أَكْثَرَ مَسْئُولِيَّةً وَأَخْلَاقِيَّةً. وَمِنْ هُنَا لَمْ يَعُدِ التَّصَوُّفُ فِي ضَوْءِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ تَجْرِبَةً انْسِحَابٍ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ مَشْرُوعًا لِإِعَادَةِ بِنَاءِ طَرِيقَةِ الْحُضُورِ فِيهِ.

وَقَدْ أَظْهَرَ الْبَحْثُ أَيْضًا أَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ لِلْحُرِّيَّةِ يَسْمَحُ بِفَتْحِ جَوَارٍ مَعَ إِشْكَالِيَّاتِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ، خُصُوصًا أَرْمَاتِ الْاسْتِهْلَاقِ وَالْاِغْتِرَابِ وَقَلَقِ الْإِنْجَازِ وَتَصْخُمِ الْاَنَا وَفَقْدَانِ الْمَعْنَى وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَذْهَبِ الْبَحْثُ إِلَى تَحْوِيلِ الْحُرِّيَّةِ الصُّوفِيَّةِ إِلَى بَدِيلٍ عَنِ الْحُرِّيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ بَلْ أَكَّدَ أَنَّ التَّحَرُّرَ الْبَاطِنِيَّ لَا يُعْنِي عَنِ مَقَاوِمَةِ الْقَهْرِ الْخَارِجِيِّ، كَمَا أَنَّ رَفْعَ الْقَهْرِ الْخَارِجِيِّ لَا يَصْنَعُ حُرِّيَّةَ الدَّاتِ مِنْ دَاخِلِهَا. إِنَّ مَا يَكْشِفُهُ هَذَا الْبَحْثُ فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ هُوَ أَنَّ سُؤَالَ الْحُرِّيَّةِ فِي التَّصَوُّفِ لَا يَنْتَهِي عِنْدَ السُّؤَالِ: هَلْ أَنَا حُرٌّ؟، بَلْ يَبْدَأُ مِنْ سُؤَالٍ أَعْمَقَ مِمَّا يَجِبُ أَنْ أَتَحَرَّرَ حَتَّى أَكُونُ حُرًّا؟ وَمِنْ هُنَا يَكُونُ التَّحَرُّرُ الصُّوفِيُّ سَبِيلُورَةً تَنْقُلُ الْإِنْسَانَ مِنْ عُيُودِيَّةِ الْهَوَى إِلَى وَعِي الْإِرَادَةِ، وَمِنْ تَشْتَبِ الرِّغْبَةِ إِلَى وَحْدَةِ الْقَصْدِ، وَمِنْ التَّعَلُّقِ بِالأَشْيَاءِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ مِنْ سُلْطَتِهَا، وَمِنْ مَرْكَزِيَّةِ الْاَنَا إِلَى الْاِنْفِتَاحِ عَلَى الْآخَرِ، وَمِنْ وَهْمِ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْعَالَمِ إِلَى اِمْتِلَاقِ الدَّاتِ وَتَحْرِيرِ طَرِيقَةِ الْحُضُورِ فِيهِ. وَبِهَذَا يَنْتَهِي الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي الرُّوْيَةِ الصُّوفِيَّةِ لَا تَكُونُ حُرِّيَّةً مِنْ كُلِّ انْتِمَاءٍ وَمَعْنِيٍّ، بَلْ حُرِّيَّةً مِنْ كُلِّ مَا يُحَوِّلُ الْإِنْسَانَ إِلَى تَابِعٍ لِهَوَاهُ أَوْ خَوْفِهِ أَوْ شَهْوَتِهِ أَوْ صُورَتِهِ أَوْ مَا يَمْلِكُهُ. وَمِنْ هُنَا تَكُونُ الْإِضَافَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ الْاَسَاسِيَّةُ لِهَذَا الْبَحْثِ هِيَ الْاِنْتِقَالُ مِنْ فِلْسَفَةِ الْحُرِّيَّةِ إِلَى فِلْسَفَةِ التَّحَرُّرِ؛ أَيِ: مِنْ السُّؤَالِ عَنِ مَا هِيَ الْحُرِّيَّةُ إِلَى السُّؤَالِ عَنِ كَيْفِ يَصِيرُ الْإِنْسَانُ حُرًّا.

نَتَآجِ الْبَحْثِ:

انْتَهَى الْبَحْثُ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ النَّتَآجِ، مِنْ أَهَمِّهَا:

1. أَنَّ الْحُرِّيَّةَ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ لَا تَقُومُ عَلَى إِطْلَاقِ الرِّغْبَةِ، بَلْ عَلَى تَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ مِنْ سُلْطَتِهَا.
2. أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ حُرِّيَّةِ الْفِعْلِ وَحُرِّيَّةِ الدَّاتِ يُمَثِّلُ مِفْتَاحًا اَسَاسِيًّا لِفَهْمِ الْحُرِّيَّةِ الصُّوفِيَّةِ.
3. أَنَّ الْعُيُودِيَّةَ لِلَّهِ لَا تَفْهَمُ فِي التَّصَوُّفِ عَلَى أَنَّهَا الْإِغَاءُ لِلْحُرِّيَّةِ، بَلْ عَلَى أَنَّهَا تَحْرِيرٌ مِنْ عُيُودِيَّةِ مَا سِوَاهُ.
4. أَنَّ التَّوْحِيدَ يَحْمِلُ بُعْدًا تَحْرِيرِيًّا، لِأَنَّهُ يُوجِدُ وَجْهَةَ الْقَصْدِ وَيَحْدُ مِنْ تَعَدُّدِ مَرَآكِزِ الْخُضُوعِ دَاخِلِ الدَّاتِ.
5. أَنَّ الْإِرَادَةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تُلْغَى، بَلْ تَخْضَعُ لِعَمَلِيَّةٍ تَهْذِيبٍ وَإِعَادَةٍ تَوْجِيهِ وَ أَنَّ الْمَجَاهِدَةَ لَا تَعْنِي قَمْعَ الرِّغْبَةِ، بَلْ نَزْعَ سُلْطَتِهَا عَنْ مَرْكَزِ الْإِرَادَةِ.
6. أَنَّ التَّرَكِيَّةَ يُمَكِّنُ قِرَاءَتَهَا فِلْسَفِيًّا بِوَصْفِهَا إِعَادَةَ بِنَاءِ اللَّذَاتِ.
7. أَنَّ الزُّهْدَ لَا يَعْنِي تَرْكَ الْأَشْيَاءِ بِذَاتِهَا، بَلْ تَحْرِيرَ الْعِلَاقَةِ بِهَا.
8. أَنَّ الْمُرَاقَبَةَ وَالْمُحَاسَبَةَ تُنْجِجَانِ وَعِيًا نَقْدِيًّا بِالدَّوَافِعِ، وَهُوَ شَرْطٌ اَسَاسِيٌّ لِتَحْرِيرِ الدَّاتِ.
9. أَنَّ التَّوَكُّلَ يُمَكِّنُ أَنْ يُفْهَمَ بِوَصْفِهِ تَحْرِيرًا مِنْ عُيُودِيَّةِ النَّتِيجَةِ، لَا تَعْطِيلًا لِلْفِعْلِ.
10. أَنَّ الرِّضَا يُمَثِّلُ تَحْرِيرًا مِنَ الْارْتِهَانِ لِمَا لَا يُمَكِّنُ تَغْيِيرَهُ، دُونَ أَنْ يَعْنِيَ السَّلْبِيَّةَ أَوْ الْاِسْتِيسْلَامَ.

11. أَنَّ الْفَنَاءَ لَا يَعْنِي الْغَاءَ الذَّاتِ، بَلْ تَجَاوَزَ مَرَكِزِيَّةَ الْأَنَا وَاسْتَبْدَادَهَا وَأَنَّ الْبَقَاءَ يُمَثِّلُ عَوْدَةَ الذَّاتِ إِلَى الْعَالَمِ بَعْدَ إِعَادَةِ بِنَائِهَا رُوحِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا.
12. أَنَّ الْإِخْلَاصَ يُمَكِّنُ قِرَاءَتَهُ بِوَصْفِهِ تَحْرِيرًا لِلْقَصْدِ مِنْ سُلْطَةِ نَظَرِ الْآخَرِ.
13. أَنَّ الْمَحَبَّةَ وَالْإِيثَارَ وَالرَّحْمَةَ تُعَبِّرُ عَنْ انْتِقَالِ الْحُرِّيَّةِ مِنَ الدَّخْلِ إِلَى الْفَاعِلِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.
14. أَنَّ التَّصَوُّفَ يَسْمَحُ بِقِرَاءَةِ فَلَسَفِيَّةٍ لِبَعْضِ أَشْكَالِ الْاِغْتِرَابِ الْإِنْسَانِيِّ، خُصُوصًا اِغْتِرَابِ الذَّاتِ عَنْ إِرَادَتِهَا وَقِيَمَتِهَا وَمَعْنَاهَا.
15. أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الصُّوفِيَّةَ تَمْتَلِكُ طَاقَةً نَفْثِيَّةً فِي مُوَاجَهَةِ ثَقَافَةِ الْاِمْتِلَاكِ وَالْاِسْتِهْلَاكِ وَتَصَحُّمِ الْأَنَا وَقَلْقِ الْاِغْتِرَابِ.
16. أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الْبَاطِنِيَّةَ لَا تَكْفِي وَحْدَهَا لِتَحْقِيقِ التَّحَرُّرِ الْإِنْسَانِيِّ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَامَلَ مَعَ الْحُرِّيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ.
17. أَنَّ التَّحَرُّرَ الصُّوفِيَّ لَا يَعْنِي الْخُرُوجَ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ إِعَادَةَ تَحْرِيرِ طَرِيقَةِ الْحُضُورِ فِيهِ.
18. أَنَّ أَصَالَةَ الرُّوْيَةِ الصُّوفِيَّةِ لِلْحُرِّيَّةِ تَكْمُنُ فِي أَنَّهَا تَسْأَلُ لَا عَنْ مَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَخْتَارَهُ فَقَطْ، بَلْ عَنْ طَبِيعَةِ الذَّاتِ الَّتِي تَخْتَارُ

النَّوْصِيَّاتُ:

فِي ضَوْءِ النَّتَاجِ السَّابِقَةِ، يُوصِي الْبَحْثُ بِمَا يَأْتِي:

1. تَوْسِيعَ الدِّرَاسَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ لِلتَّصَوُّفِ بِحَيْثُ تَتَجَاوَزُ الْوَصْفَ التَّارِيخِيَّ إِلَى تَحْلِيلِ مَفَاهِيمِ الذَّاتِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ.
2. إِعَادَةَ دِرَاسَةِ مُفْرَدَاتِ الْمَجَاهِدَةِ وَالتَّرَكِّيَّةِ وَالزُّهْدِ وَالْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ مِنْ مَنْظُورِ فَلَسَفَةِ تَحْرِيرِ الذَّاتِ.
3. تَوْسِيعَ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ التَّصَوُّرِ الصُّوفِيِّ لِلْحُرِّيَّةِ وَالْفَلَسَفَاتِ الْحَدِيثَةِ وَالْمُعَاصِرَةِ، شَرْطَ الْحِفَاطِ عَلَى خُصُوصِيَّةِ الْمَرْجِعِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ.
4. دِرَاسَةَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْحُرِّيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ.
5. تَخْصِيسَ دِرَاسَاتٍ مُسْتَقْلِلَةٍ لِعِلَاقَةِ التَّصَوُّفِ بِالْاِغْتِرَابِ وَأَرْمَةِ الْمَعْنَى وَتَشْطِي الْهُويَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ.
6. دِرَاسَةَ مَفْهُومِ الْإِخْلَاصِ بِوَصْفِهِ نَمُودَجًا لِتَحْرِيرِ الْقَصْدِ مِنْ سُلْطَةِ نَظَرِ الْآخَرِ.
7. تَحْلِيلَ مَفْهُومِ الزُّهْدِ فِي ضَوْءِ نَفْثَةِ ثَقَافَةِ الْاِسْتِهْلَاكِ وَالتَّمَاهِي مَعَ الْاِمْتِلَاكِ. وَإِعَادَةَ النَّظَرِ فِي مَفْهُومِي الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ مِنْ زَاوِيَةِ فَلَسَفَةِ الذَّاتِ وَالْهُويَّةِ.
8. الْإِفَادَةَ مِنَ التَّرَاثِ الصُّوفِيِّ فِي بِنَاءِ خِطَابِ أَخْلَاقِيٍّ مُعَاصِرٍ يَجْمَعُ بَيْنَ تَحْرِيرِ الْإِرَادَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ تَجَاهَ الْآخَرِ.
9. ضَرُورَةَ الْحَذَرِ مِنْ تَقْدِيمِ التَّصَوُّفِ بِوَصْفِهِ بَدِيلًا عَنْ الْعَدَالَةِ وَالْحُرِّيَّاتِ الْعَامَّةِ، فَالْتَّرَكِّيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ لَا تُلْغِي ضَرُورَةَ مَقَاوِمَةِ الْقَهْرِ وَالظُّلْمِ.
10. إِنْشَاءَ مَسَارٍ بَحْثِيٍّ أَوْسَعَ حَوْلَ مَا يُمَكِّنُ تَسْمِيئَهُ «الْفَلَسَفَةُ الصُّوفِيَّةُ لِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ»، بِوَصْفِهِ مَجَالًا يَجْمَعُ بَيْنَ فَلَسَفَةِ الْإِنْسَانِ وَالْأَخْلَاقِ وَالتَّصَوُّفِ.

المراجع

- [1] ابن عربي، م. (2002). الطواسين. دار الكتب العلمية.
- [2] أبو العلا، ع. (1963). التصوف: الثورة الروحية في الإسلام. دار المعارف.
- [3] البودريار، ج. (1995). المجتمع الاستهلاكي (خ. أحمد، المترجم). دار الفكر اللبناني.
- [4] التوقاني، أ. ب. (1960). اللمع في التصوف (ع. ح. محمود، و ط. ع. ب. سرور، المحققان). دار الكتب الحديثة.
- [5] الجلابادي، أ. ب. (1969). التعرف لمذهب أهل التصوف (م. أمين، المحقق). مكتبة الكليات الأزهرية.
- [6] الجنيد، أ. ق. (2005). رسائل الجنيد (ج. رجب، المحقق). دار إقرأ للطباعة والنشر.
- [7] السكندري، أ. ع. (2005). الحكم العطائية. دار المعرفة.
- [8] السهروردي، ش. د. (1998). عوارف المعارف. دار الكتب العلمية.

- [9] الطيورجي، إ. (2005). دراسات في التصوف. دار الإمام.
- [10] الغزالي، أ. ح. (د.ت). إحياء علوم الدين (ج. 4). دار المعرفة.
- [11] القشيري، أ. ق. (1994). الرسالة القشيرية (ع. ح. محمود، وم. ب. الشريف، المحققان؛ ج. 2). دار المعارف.
- [12] المكي، أ. ط. (2005). قوت القلوب (ع. الكيالي، المحقق). دار الكتب العلمية.
- [13] تايلور، ت. (2014). منابع الذات: تكوّن الهوية الحديثة (ح. إسماعيل، المترجم). المنظمة العربية للترجمة.
- [14] سارتر، ج. ب. (1966). الوجود والعدم (ع. بدوي، المترجم). دار الآداب.
- [15] عبد القادر، م. (1966). الفلسفة الصوفية في الإسلام (ط. 1). دار الفكر العربي.
- [16] فروم، أ. (2019). الامتلاك أو الوجود: الأسس النفسية لمجتمع جديد (ح. لشهب، المترجم). جداول للنشر والتوزيع.
- [17] محمود، ز. ن. (1993). موقف من الميتافيزيقا. دار الشروق.
- [18] هيدغر، م. (2023). دروب لا تقضي إلى أي مكان (ع. جبر، المترجم). دار نينوى للنشر.

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **AJHAS** and/or the editor(s). **AJHAS** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.